الكتاب للجميع
١٠١
السفير

مجانا مع جريدة السفير

ايفان تورغينيف

رودين

ترجمة
غائب طعمة فرمان

الجزء الاول

5995

مجاناً مع جريدة السفير

السفير

■

صاحبها ورئيس تحريرها: طلال سلمان
المدير العام: ياسر نعمة
مدير التحرير: ساطع نور الدين
المدير المسؤول: غاصب المختار

■

التحرير والإدارة: شارع منيمنة/الحمراء/بيروت
تلكس SAFIR 21484 LE
فاكس ٧٤٣٦٠٢ - ٣٥٠٠٠٥
ص.ب: ١١٣/٥٠١٥/الحمرا - بيروت ١١٠٣٢٠١٠
انترنت http://www.assafir. com
Coordinator@assafir. com

- تمت الطباعة في مطابع جريدة السفير
- تلفاكس ٩٦١-١١-٧٤٣٦٠١/٢/٣/٤+

سلسلة شعبية تعيد إصدارها

دار المدى للثقافة والنشر

رئيس مجلس الادارة والتحرير

فخري كريم

الاشراف الفني

محمد سعيد الصكار

سورية - دمشق ص. ب: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦

تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان - بيروت- الحمراء- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول

تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧

E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

almadapaper.com

almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

الهيئة الاستشارية

المنجي بو سنينة

تركي الحمد

جابر عصفور

خالد محمد احمد

خلدون النقيب

سيد ياسين

طلال سلمان

علي الشوك

فؤاد بلاط

محمد برادة

الكتاب للجميع

١٠١

ايفان تورغينيف

رودين

الجزء الأول

ترجمة: غائب طعمة فرمان

طبعة خاصة
توزع مجاناً مع جريدة (السفير)

دار المدى للثقافة والنشر
٢٠١٠

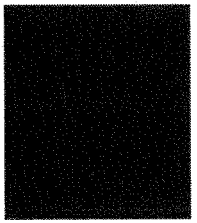

- ١ -

كان صباحاً صيفياً هادئاً. والشمس قد قطعت شوطاً كبيراً في السماء الصافية. ولكن الحقل ما يزال يلتمع بالندى، والطراوة الشذية تعبق من الوديان المستيقظة قبل قليل، والطيور الباكرة تصدح في الغابة التي ما تزال رطبة وبلا ضجيج. وكانت، ثمة قرية صغيرة تلوح على قمة تل يغطي الشوفان المتفتح لتوه منحدره الصبب من الأعلى إلى الأسفل، وكانت امرأة شابة تسير نحو هذه القرية في درب ريفي ضيق، ترتدي فستاناً أبيض من الموسلين وتضع على رأسها قبعة مستديرة من القش، وتحمل مظلة في يدها. وكان صبي خادم يلاحقها من بعيد.

كانت تسير غير متعجلة، وكأنما تستمتع بنزهتها. وفي كل مكان حولها كانت تموجات طويلة تسري بهسهسة ناعمة في الشوفان العالي المتمايل برقراق فضي أخضر تارة، وضارب إلى الحمرة تارة أخرى. وكانت القبرات تهدل على مرتفع من الأرض. وكانت المرأة الشابة، وتدعى الكسندرا بافلوفنا ليبينا، قادمة من قريتها التي لا تبعد عن القرية الصغيرة أكثر من فرسخ. وكانت أرملة لم تنجب أولاداً، وهي على قدر كبير من الثراء، تعيش مع أخيها سيرغي بافلوفيتش فولينتسيف، المتقاعد برتبة نقيب في سلاح الفرسان. وكان أعزباً ويدير ضيعتها.

بلغت الكسندرا بافلوفنا القرية، وتوقفت عند كوخ على طرفها زري الهيئة جداً، واطئ، واستدعت خادمها الصغير، وأمرته بأن يدخل الكوخ ويسأل عن صحة ربته. وعاد بعد قليل بصحبة ريفي شائخ ذي لحية بيضاء.

سألته الكسندرا بافلوفنا:

ـ كيف؟

قال العجوز:

ـ ما تزال ميتة...

ـ هل الدخول ممكن؟

ـ ولم لا؟ ممكن.

دخلت الكسندرا بافلوفنا الكوخ. كان ضيقاً موغر الهواء، داخناً... تحرك شخص على سطح الموقد، وراح يئن. التفتت الكسندرا بافلوفنا، ورأت، في الضوء الباهت، رأس عجوز أصفر متغضناً، والعجوز معتمرة بمنديل ذي مربعات، ومغطاة إلى صدرها بقفطان ثقيل. وكانت تتنفس بعسر، باسطة ذراعيها النحيلتين بوهن.

اقتربت الكسندرا بافلوفنا من العجوز، ومسّت جبينها بأصابعها... كان يلتهب حرارة. وسألت، وهي تنحني على سطح الموقد:

ـ كيف حالك، يا ماترونا؟

ـ أوه ـ تأوهت العجوز ممعنة النظر في الكسندرا بافلوفنا ـ سيئة، حالي سيئة، يا عزيزتي! حانت منيتي، يا حلوة!.

ـ الله رحيم، يا ماترونا: وربما تتشافين... هل تناولت الدواء الذي أرسلته لك؟

توجعت العجوز ملتاعة، ولم تجب. إذ لم تسمع السؤال.

قال العجوز الذي توقف عند الباب:

ـ تناولته.

توجهت الكسندرا بافلوفنا نحوه، وسألته:

ـ ألا يوجد لها أحد غيرك؟..

ـ عندها فتاة، هي حفيدتها، ولكنها دائماً متغيبة. متحركة ولا تستقر في مكانها. تتكاسل حتى من تقديم الماء لجدتها. بينما أنا عجوز مثلها. فأين مني الاعتناء بها؟

ـ ربما ننقلها عندي، في المستشفى؟

ـ لا! لا حاجة إلى المستشفى! ليس أمامها غير الموت.

عاشت مافيه الكفاية. والظاهر أنها إرادة الله. لن تنزل بعد من سطح الموقد. وما المستشفى بالنسبة لها! ستموت حالما ينقلونها.

أخذت المريضة تئن:

ـ أوه، يا سيدة، يا حلوة، لا تتخلي عن يتيمتي. أسيادنا بعيدون، وأنت...

سكتت العجوز. كانت تتحدث بجهد. انبرت الكسندرا بافلوفنا تقول:

ـ لا تقلقي. سيتم كل شيء كما تشائين. ها أنا قد جلبت لك شاياً وسكراً. اشربي، إذا رغبت ـ ونظرت إلى العجوز وأضافت: عندكم سماور؟

ـ سماور؟ ليس عندنا سماور، ولكن الحصول عليه ممكن.

ـ احصل عليه، وإلا فسأرسل سماوري. واطلب من الحفيدة أن لا تتغيب. قل لها، هذا عيب.

لم يجب العجوز بشيء، بل تناول لفّة الشاي والسكر بكلتا يديه.

قالت الكسندرا بافلوفنا :

ـ طيب، وداعاً، يا ماترونا! سأجيء إليك مرة أخرى، ولا تجزعي، وتناولي الدواء بانتظام...

رفعت العجوز رأسها قليلاً، ومدت جسمها نحو الكسندرا بافلوفنا، وغمغمت:

ـ أعطني يدك، يا سيدة.

لم تعطها الكسندرا بافلوفنا يدها، بل انحنت، وقبلت جبينها. وقالت للعجوز وهي تخرج:

ـ انتبه، وأعطها الدواء من كل بد، وكما هو موصوف، واسقها الشاي...

لم يجب العجوز هذه المرة أيضاً، واكتفى بأن حياها بانحناءة. تنفست الكسندرا بافلوفنا الصعداء، وقد خرجت إلى الهواء الطلق. فتحت مظلتها، وهمت بالعودة إلى البيت، وإذا برجل في نحو الثلاثين من العمر يستقل عربة ركوب خفيفة واطئة يبرز من وراء المنعطف فجأة. كان في معطف قديم من القماش القطني السميك الرمادي، وقبعة من القماش نفسه. أوقف حصانه، حالما رأى الكسندرا بافلوفنا، وأدار إليها وجهه. كان وجهه العريض الخالي من التورد، الحليق الشاربين، بعينيه الصغيرتين الرماديتين الشاحبتين، يناسب لون ملابسه.

ـ مرحباً ـ قال بتكشيرة كسول ـ أرجو أن أعرف ماذا تفعلين هنا؟

ـ كنت أزور مريضة... وأنت من أين، يا ميخايلو ميخايليتش؟

نظر المسمى ميخايلو ميخايليتش في عينيها، وعاد إلى تكشيرته التهكمية، ومضى يقول:

ـ لطيف منك أن تزوري مريضة، ولكن أليس من الأفضل لك أن تنقليها إلى المستشفى؟

ـ هي ضعيفة للغاية، فلا يجوز مسها.

ـ وأنت، ألا تنوين تصفية مستشفاك؟

ـ تصفيته؟ ولماذا؟

ـ هكذا.

ـ أية فكرة غريبة؟ ما الذي جعلها تطرأ في رأسك؟

ـ أنت تصاحبين لاسونسكايا على الدوام[1]. يبدو أنك تحت تأثيرها. المستشفيات والمدارس، حسب كلامها، ماهي إلا توافه، وبدع عديمة الجدوى. الإنسان بنفسه يجب أن يؤدي الإحسان، مثلما يجب أن يقوم نفسه بالتنوير. فإن كل ذلك من عمل الذات... هذا تعبيرها على ما يبدو. حبذا لو أعرف من هذا الذي تردد معزوفته[2]؟

أخذت الكسندرا بافلوفنا تضحك.

ـ داريا ميخايلوفنا امرأة ذكية جداً، وأنا أحبها كثيراً وأحترمها. ولكنها قد تكون على خطأ، فأنا بدوري لا أصدق بكل كلمة تقولها.

ـ نعْمَ ما تفعلين ـ ردّ ميخايلو ميخايليتش، وهو ما يزال في عربته ـ لأنها هي نفسها قليلة التصديق بكلماتها. أنا مسرور جداً بأن ألقاك.

ـ وماذا هناك.؟

ـ سؤال لطيف! وكان لقياك لا يبعث البهجة دائماً! أنت اليوم نضرة وحبيبة إلى القلب كهذا الصباح.

ضحكت الكسندرا بافلوفنا مرة أخرى.

ـ ما الذي يضحكك؟

ـ كيف ما الذي! ليتك رأيت بأية سحنة فاترة باردة نطقتْ بإطرائك! عجيب كيف لم تتثاءب في آخر كلمة.

ـ بسحنة باردة... وأنت تريدين ناراً دائماً. بينما لا جدوى من النار. فإنها تشب، وتدخن، وتنطفئ.

فاستدركت الكسندرا بافلوفنا :

ـ وتدفئ.

ـ نعم... وتحرق.

ـ ولتكن ليس هذا مصيبة. على كل حال أفضل من... قاطعها ميخايلو ميخايليتش في ضيق:

ـ سأرى هل ستقولين هذا، حين تحرقك حرقاً مضاً، ولو مرة واحدة ـ وضرب الحصان بالعنان، وقال : ـ وداعاً!...

صاحت الكسندرا بافلوفنا:

ـ ميخايلو ميخايليتش ، انتظر قليلاً، متى ستزورنا ؟..

ـ غداً. سلّمي على أخيك.

وسارت العربة.

نظرت الكسندرا بافلوفنا في أثر ميخايلو ميخايليتش .

وفكرت في نفسها: «ياللكيس!». وبالفعل كان يشبه كيس طحين كبيراً باحديداب ظهره، واغبراره، وقبعته سارحة على علبائه، تبرز من تحتها خصلات شعث من الشعر الأصفر.

سارت الكسندرا بافلوفنا في طريقها إلى البيت متمهلة، مطرقة العينين. جعلتها كركبة حصان قريبة تتوقف، وترفع رأسها... كان أخوها يسير في الاتجاه المقابل راكباً حصاناً. وإلى جانبه سار شاب معتدل القامة يرتدي سترة فراك خفيفة محلولة الأزرار، وربطة عنق خفيفة، وقبعة رمادية خفيفة، والعصا في يده. وكان قد ابتسم لالكسندرا بافلوفنا منذ برهة طويلة، على الرغم من أنه رآها غارقة في التفكير لا تلحظ شيئاً، وحالما توقفت دنا منها، وانبرى يحييها في فرحة ورقة تقريباً:

ـ مرحباً، الكسندرا بافلوفنا، مرحباً!

ـ آه! قسطنطين ديوميديتش! مرحباً! ـ ردّت عليه ـ أقادم أنت من داريا ميخايلوفنا ؟

أسرع الشاب يقول بوجه متألق:

ـ بالضبط، بالضبط، يا سيدتي، من داريا ميخايلوفنا ؟..

وقد أرسلتني إليك، فآثرت أن أقطع الطريق ماشياً... والصباح رائع جداً، والمسافة لا تتجاوز أربعة فراسخ. وصلت ولم أجدك في البيت. وأخبرني أخوك بأنك ذهبت إلى سيمينو فكا، وكان يتهيأ للخروج للحقل، فخرجت معه للقياك. نعم، كم ممتع هذا!

كان الشاب يتحدث بلغة روسية صافية وسليمة، ولكن بلكنة أجنبية، ولو كان من الصعب معرفة لكنة أي قوم، كانت في ملامح وجهه مسحة آسيوية، فقد كان أنفه الطويل المحدودب، وعيناه الواسعتان الجامدتان الجاحظتان، وشفتاه الحمراوان السميكتان، وجبينه المنسرح، وشعره الأسود الفاحم بلون القطران، كل ذلك كان يشي بنسبه الشرقي، ولكن الشاب كان يُلقب بباندالـيفسكي، ويسمي اوديسا مسقط رأسه، على الرغم من أنه كان يتلقى تعليمه في بيلوروسيا على حساب أرملة غنية محسنة. بينما أسندت له أرملة أخرى وظيفة. والنساء المتوسطات السن، بشكل عام، كن يشملن قسطنطين ديو ميديتش هذا بالرعاية، فقد كان يحسن أن يبحث فيهن عن شيء، ويحسن أن يجده. وهو في الوقت الحاضر يعيش عند صاحبة أملاك ثرية، هي داريا ميخايلوفنا لاسونسكايا كابن لها بالتبني أو كنزيل. كان رقيق الحاشية جداً، خدوماً، ودوداً، شهوانياً في الخفاء، وكان يتمتع بصوت عذب، ويعزف على البيانو عزفاً معتبراً، وله عادة التفرس في عيني من يتحدث معه. كان نظيف الملبس جداً، وكان يحافظ على لباسه فترة طويلة للغاية، وكان يحلق ذقنه العريض بعناية، ويصف شعرة إلى شعرة.

استمعت الكسندرا بافلوفنا إلى كلامه حتى النهاية، والتفتت إلى أخيها.

ـ حظي اليوم في اللقاءات كبير. قبل قليل كنت أتحدث مع ليجنيف.

ـ آه، معه! هل كان ذاهباً إلى مكان ما؟

ـ نعم، وتصوّر، على عربة ركوب خفيفة، لابساً ما يشبه كيساً من الكتّان، ومسربلاً كله بالغبار.... غريب الأطوار حقاً!

ـ نعم، ربما، ولكنه رجل لطيف...

سأل باندالـيفسكي كالمتعجب:

ـ من هذا؟ السيد ليجنيف؟

وردّ فولينتسيف:

ـ نعم، ميخايلو ميخايليتش ليجنيف. على أية حال، مع السلامة، يا أختي، حان وقت طلوعي إلى الحقل، فإنهم يبذرون الحنطة السوداء هناك، في حقلك، سيرافقك السيد باندالـيفسكي إلى البيت....

وأطلق فولينتسيف العنان لفرسه.

ـ بفائق السرور!...

هتف قسطنطين ديوميديتش، وقدّم يده لالكسندرا بافلوفنا .
أعطته يدها، فاتجه الاثنان في طريقهما إلى ضيعتهما.

*

كان قسطنطين ديوميديتش يجد، على ما يبدو، متعة كبيرة في تأبط ذراع الكسندرا بافلوفنا. كان يسير بخطى قصيرة، مبتسماً، وبل وإن عينيه الشرقيتين تندتا، وذلك، بالمناسبة، ما يحدث أحياناً كثيرة. فما من شيء كان يكلف قسطنطين ديوميديتش تأثرا أو ذرف دمعة، ثم مَنْ لا يطيب له أن يتأبط ذراع امرأة شابة حلوة ممشوقة القوام؟ كانت ولاية... كلها تقول بالإجماع إن الكسندرا بافلوفنا فتنة، وولاية... لم تكن على خطأ. أنفها المستقيم المرفوع قليلاً كان وحده كفيلاً بأن يفقد أياً من الفانين عقله، دع عنكم عينيها البنيتين المخمليتين، وشعرها الكتاني الذهبي، والغمّازتين على خديها المدورين، ومحاسن أخرى. ولكن تعبير وجهها الحلو المحيّا كان أجمل ما فيها. وجه تشع منه السماحة والطيبة والوداعة، فكان يحرك المشاعر، ويجذب. كانت الكسندرا بافلوفنا ترنو وتضحك كطفل، وكانت السيدات جاراتها يعتبرنها مفرطة في البساطة... فماذا يمكن لإنسان أن يصبو إلى أكثر من ذلك؟..

ـ سألت باندالیفكسي:

ـ تقول أن داريا ميخايلوفنا أرسلتك لي؟

ـ نعم، أرسلتني ـ قال ناطقاً بالسين «th» إنكليزية ـ طلبت مني أن أنقل رغبتها الحارة والأكيدة بأن تتفضلي اليوم بتناول الغداء معها... إنهن (كان باندالیفسكي، حين يتكلم عن ضمير الغائب، ولاسيما المؤنث، يستعمله بالجمع) إنهن ينتظرن أن يزورهن ضيف جديد يودّن لو تتعرفين إليه.

ـ من هو؟

ـ شخص يدعى موفيل، بارون، وضابط حاشية من بطرسبورغ، تعرفت داريا ميخايلوفنا عليه، منذ وقت قصير، في بيت الأمير غارين، وهي تثني عليه طيب الثناء، كشاب مهذب مثقف. كما أن سيادته يهتم بالأدب، والأفضل أن يقال.... آه، أية فراشة فاتنة! أرجو أن تعيريها انتباهك... الأفضل أن يقال، يهتم بالاقتصاد السياسي. وقد كتب مقالة عن موضوع ممتع جداً، ويحب أن يطرحها على حكمة داريا ميخايلوفنا.

ـ مقالة في الاقتصاد السياسي؟

ـ من حيث اللغة، يا الكسندرا بافلوفنا من حيث اللغة. وأظن أنك تعرفين أن داريا ميخايلوفنا خبيرة في هذا أيضاً. وجوكوفسكي[٣] كان يتشاور معها، والمحسن إليَّ، الشيخ السامي الخلق روكسلان ميدياروفيتش[٤]، الذي يعيش في أوديسا... لعلك سمعت باسم هذا الشخص؟

ـ ما سمعت به قط.

ـ لم تسمعي بهذا الرجل؟ عجيب! أحببت أن أقول إن روكسلان ميدياروفيتش هذا كان دائماً يشيد كثيراً بمعارف داريا ميخايلوفنا في اللغة الروسية.

سألت الكسندرا بافلوفنا :

ـ أليس هذا البارون متزمتاً؟

ـ لا، أبداً، و داريا ميخايلوفنا تقول إنه، على العكس، يبدو منذ الوهلة الأولى رجل مجتمعات راقية. وكان يتحدث عن بيتهوفن بحسن بيان، جعل الأمير العجوز يشعر بغبطة شديدة... ليتني، وأعترف لك، كنت بين مستمعيه. فهذا من اختصاصي اسمحي لي أن أقدم لك هذه الزهرة البرية الجميلة.

تناولت الكسندرا بافلوفنا الزهرة، وبعد عدة خطوات أوقعتها في الطريق... لم يبق على الوصول إلى بيتها غير ما يقرب من مئتي خطوة، لا أكثر، كان البيت قد عمّر وبيّض قبل وقت قصير، فكان يطل في ترحاب بنوافذه العريضة الوضيئة من بين الخضرة الكثيفة لأشجار الزيزفون والقيقب المعمرة.

أنشأ باندااليفسكي يقول، متكدراً قليلاً من مصير الزهرة التي قدمها لها:

ـ ماذا تأمرين بأن أبلغ داريا ميخايلوفنا؟ هل ستتفضلين إلى الغداء؟ إنها تدعوك وأخاك.

ـ نعم، سنأتي بالتأكيد، ولكن كيف ناتاشا؟

ـ ناتاليا الكسييفنا في صحة، والحمد لله... ولكن هانحن قد تجاوزنا المنعطف إلى ضيعة داريا ميخايلوفنا . فائذني لي بالانصراف.

توقفت الكسندرا بافلوفنا ، وسألت بصوت غير حازم:

ـ ألا تتفضل فتدخل البيت؟

ـ أود ذلك بكل قلبي، ولكن أخشى أن أتأخر. تحب داريا ميخايلوفنا أن تسمع دراسة موسيقية جديدة لتالبرغ[٥]، ويجب الاستعداد لها والتمرن عليها. أعترف لك، بالمناسبة، بأنني أشك في أن الحديث معي يمكن أن يمدك بأية متعة.

- ولكن لا... لماذا...

زفر باندالیفسكين وأطرق بعينيه بشكل معبر. وصمت قليلاً وقال:

- إلى اللقاء، الكسندرا بافلوفنا!

وانحنى محيياً، وخطا خطوة إلى الوراء.

استدارت الكسندرا بافلوفنا، وذهبت إلى البيت.

واتجه قسطنطين ديو ميديتش أيضاً إلى البيت. نضب وجهه من الحلاوة كلها، وظهر عليه تعبير معتد صارم تقريباً. وحتى خطو قسطنطين ديوميديتش قد تغيّر، فهو الآن يخطو خطوات أعرض وأثقل وطأة. سار حوالي فرسخين مؤرجحاً عصاه باستهانة. وإذا به يكشر من جديد، فقد رأى قرب الطريق فتاة فلاحة على جانب كبير من الملاحة كانت تبعد العجول عن الشوفان. دنا قسطنطين ديوميديتش من الفتاة بحذر، كالقط، وراح يتحدث معها. لزمت الفتاة الصمت في بادئ الأمر، واحمرت، وضحكت قليلاً، وفي آخر الأمر غطت شفتيها بكمها، وأشاحت وجهها، وغمغمت:

- اذهب، يا سيد، حقاً ...

توعدها قسطنطين ديوميديتش بإصبعه، وطلب منها أن تجلب له بعض زهور الأقحوان.

ردت الفتاة:

- ماذا تفعل بالإقحوان؟ تضفر منه إكليلاً؟ طيب، اذهب، حقاً...

شرع قسطنطين ديوميديتش يقول:

- اسمعي، يا حسنائي اللطيفة...

قاطعته الفتاة:

- أوه، اذهب، هاهما ابنا السيدة قادمان.

التفت قسطنطين ديوميديتش، فرأى، بالفعل، فانيا وبيتيا، ولدي داريا ميخايلوفنا يجريان في الطريق وراءهما معلمهما باسيستوف. وهو شاب في الثانية والعشرين، كان قد أنهى دراسته لتوه. كان باسيستوف شاباً ركيناً ذا وجه بسيط، وأنف كبير، وشفتين ضخمتين، وعينين تشبهان عيني خنزير، تعوزه الملاحة واتزان الحركات، إلاّ أنه طيب، نزيه، ومستقيم. كان مهمل الهندام، لا يحلق شعره، لا عن غواية، بل عن كسل. وكان يحب الطعام، ويحب النوم، ولكنه في الوقت ذاته، كان يحب الكتاب الجيد، والحديث الحار، ويكره باندالیفسكي من كل قلبه.

كان ابنا داريا ميخايلوفنا شغوفين بباسيستوف، ولا يخشيانه أبداً، وكان على مودة مع سائر أهل البيت، مما لم يرق للسيدة أبداً، على الرغم من كل أقوالها عن أنها لا تميد بين الناس.

قال قسطنطين ديوميديتش :

ـ مرحباً، يا عزيزي! خرجتما اليوم للنزهة في وقت مبكر جداً أما أنا ـ أضاف موجهاً خطابه إلى باسيستوف ـ فقد خرجت من وقت طويل. هوايتي الاستمتاع بالطبيعة.

غمغم باسيستوف:

ـ رأينا كيف كنت تستمتع بالطبيعة.

ـ أنت مادي، وها أنت الآن لا يعرف إلا الله ما يدور في ذهنك من أفكار، أنا أعرفك!

كان باندالييفسكي حين يتكلم مع باسيستوف أو مع شاكلته من الناس، ينفعل بسرعة، وينطق بحرف السين بصفاء، بل بقليل من الصفير.

قال باسيستوف محولاً عينيه يميناً وشمالاً:

ـ لعلك كنت تستفسر من الفتاة عن الطريق؟

كان يحس بأن باندالييفسكي يحدق في وجهه، وهذا ما ينفره غاية التنفير.

أكرر أنك مادي ولا أكثر. وبالتأكيد أنك لا ترى في كل شيء إلا الجانب الدنيوي.

ـ يا أولاد! ـ أمر باسيستوف فجأة ـ أنتما تريان شجرة الوزّال في المرجة هناك. لنر من يصل إليها أسرع... واحد! اثنان! ثلاثة!

وانطلق الولدان نحو الشجرة بكل طاقتهما. واندفع باسيستوف في أثرهما.

وفكر باندالييفسكي مع نفسه: «فلاح ريفي! سيفسد هذين الولدين... فلاح خالص!».

وطوّق قوامه الرشيق المهندم بنظرة في شعور من الرضى عن النفس، وضرب كّم سترته مرتين بأصابع متباعدة، ونفض ياقته، وتابع سيره. وحين عاد إلى حجرته ارتدى رداءً منزلياً قديماً، وجلس إلى البيانو بوجه مهموم.

- ٢ -

كان بيت داريا ميخايلوفنا لاسونسكايا يكاد يعتبر الأول في ولاية.... كلها. كان ضخماً مبنياً بالحجارة وفق تصاميم راستريلي[٦]، على ذوق القرن الماضي يشمخ بعظمة على قمة تل كان يجري على سفحه واحد من الأنهار الرئيسة في وسط روسيا. وكانت داريا ميخايلوفنا لاسونسكايا نفسها سيدة غنية بارزة أرملة موظف برتبة مستشار سري. وعلى الرغم من أن باندااليفسكي يقول إنها تعرف كل أوربا، كما أن أوربا تعرفها، إلا أن أوربا لا تعرفها إلا قليلاً، وهي حتى في بطرسبورغ لم تلعب دوراً مهماً. ومع ذلك فقد كان أهل موسكو كلهم يعرفونها، ويزورونها. كانت من علية القوم معروفة على أنها امرأة غريبة الأطوار بعض الشيء، ليست طيبة تماماً، ولكنها على جانب هائل من الذكاء. في شبابها كانت جميلة جداً، نظم الشعراء عنها القصائد، وعشقها الشبان، وغازلها كبار الناس. إلا أن خمسة وعشرين عاماً أو ثلاثين عاماً قد انقضت منذ ذلك الحين، ولم يبق أثر لمفاتنها السابقة. وكان أي إنسان يراها لأول مرة يجد نفسه مكرهاً على أن يسأل: «هل من المعقول أن هذه المرأة النحيلة الصفراء البشرة المدببة الأنف، والتي لم تبلغ الكبر بعد كانت حسناء فيما مضى؟ هل من المعقول أنها المرأة نفسها التي عزفت لها القيثارات؟...»، وكان كل إنسان يذهل في دخيلة نفسه من تغيّر كل ماهو أرضي. حقاًأن باندااليفسكي وجد أن عيني داريا ميخايلوفنا الرائعتين بقيتا، كما هما، بشكل مدهشن ولكن باندااليفسكي هذا كان يؤكد أن أوربا كلها تعرفها.

كانت داريا ميخايلوفنا تسافر إلى قريتها كل صيف مع أولادها (كان لها ثلاثة: ابنة تدعى نتاليا في السابعة عشرة، وابنان، أحدهما في العاشرة والثاني في التاسعة)، وكانت تحيا حياة على المكشوف، أي أنها كانت تستقبل الرجال، ولاسيما العزاب، ولم تكن تطيق سيدات الأقاليم، وبالمقابل لقيت الأمرّين من هؤلاء السيدات! فهي، حسب أقوالهن، أنوف ولا أخلاق لها، مستبدة رهيبة، وأهم مافي الأمر أنها كانت تبيح لنفسها شطحات في الحديث، هي الفظاعة بعينها! وبالفعل لم تكن داريا ميخايلوفنا تحب أن تضيق على نفسها في القرية، فكانت تبدو على بساطتها المتحررة في المخالطة مسحة خفيفة من ازدراء لبوة من لبوات العاصمة للمخلوقات المحيطة بها، الجاهلة إلى حد كبير والتافهة... وحتى معارفها من أهل المدينة كانت تعاملهم باستهانة شديدة، بل وبهزء، ولكن بدون مسحة الازدراء.

وبالمناسبة، ألم تلحظ، أيها القارئ أن الساهي بشكل غير اعتيادي في محيط مرؤوسيه لن تجده ساهياً مع الذوات العالية المقام؟ فما مرجع هذا؟ وعلى العموم لن تسفر مثل هذه الأسئلة عن شيء.

أتقن قسطنطين ديوميديتش دراسة تالبرغ أخيراً ونزل من غرفته النظيفة البهيجة إلى غرفة الجلوس، فوجد جميع أهل البيت مجتمعين، والصالون قد بدأ، كانت سيدة البيت قد اتخذت جلستها على أريكة عريضة، وقد طوت رجليها تحتها، وراحت تدير في يديها كراسة فرنسية جديدة. وعند النافذة جلست، إلى طرة التطريز، ابنة داريا ميخايلوفنا في جانب، وإلى الجانب الآخر، وإلى طرة التطريز أيضاً m-lle boncourt، مدرسة الأطفال، وهي آنسة عجوز يابسة العود، في نحو الستين من العمر، لها باروكة من الشعر الأسود تحت قلنسوة متعددة الألوان، وفي أذنيها قطن. وفي ركن عند الباب جلس باسيستوف يطالع صحيفة، وبالقرب منه بيتيا وفانيا يلعبان الداما، بينما وقف سيد قصير القامة أشعث أشيب أسمر الوجه ذو عينين سوداوين حركتين، وقد اتكأ على الموقد، واضعاً يديه وراء ظهره، إنه أفريكان سيميو نيتش بيغاسوف.

والسيد بيغاسوف هذا رجل غريب الأطوار. فهو مغتاظ من كل شيء ومن الجميع، ولاسيما النساء، فكان يشتم من الصباح حتى المساء، فيصيب الهدف أحياناً، ويطيش كثيراً في أحيان أخرى، ولكن يتلذذ دائماً. وكان اغتياظه يصل إلى الصبيانية. فتبدو ضحكته، وصوته، وكل كيانه مشبعة بالصفراوية. كانت داريا

ميخايلوفنا تستقبل بيغاسوف برضى، فقد كان يسريها بنزواته التي كانت، هي الأخرى، مسلية حقاً. وكان هواه أن يضخم كل شيء. فمثلاً أية مصيبة حكيت بحضوره، سواء أقالوا له إن الرعد أحرق قرية، وإن الماء اجتاح طاحونة، وإن فلاحاً قطع يده بفأس كان يسأل في كل مرة وبقسوة مركزة «وما اسمها؟»، أي ما اسم المرأة التي نجمت عنها تلك المصيبة لأن المرأة، حسب تأكيداته، سبب كل مصيبة، إذا مُحص في الأمر جيداً. ذات مرة ركع أمام سيدة لا يعرفها تقريباً ألحت عليه بالاستضافة فأخذ يتضرع إليها دامع العينين، ولكن بضراوة مرتسمة على وجهه، بأن ترحمه، وبأنه لم يذنب في حقها بشيء، وأنه في المستقبل لن يزورها أبداً. ذات مرة اندفع حصان على منحدر التل بإحدى غسالات داريا ميخايلوفنا ، وألقاها في أخدود، وكاد يقتلها. ومن ذلك الحين لم يعد بيغاسوف يسمي هذا الحصان إلا بالجواد الكريم، بينما اعتبر التل والأخدود مكانين جميلين للغاية. لم يوفق بيغاسوف في حياته فجلب لنفسه هذه الحماقة نتيجة لذلك.

كان ينحدر من أبوين فقيرين. اشتغل والده في وظائف صغيرة مختلفة، وكان قليل التعليم، فلم يهتم بتربية ولده، كان يطعمه ويلبسه ولا غير. وكانت أمه تدلله، ولكنها سرعان ما توفيت. فعلّم بيغاسوف نفسه بنفسه، واختار لنفسه مدرسة في مركز قضاء، ثم مدرسة ثانوية، وتعلم اللغة الفرنسية والألمانية، وحتى اللاتينية، فتخرج من المدرسة الثانوية بشهادة ممتازة، وسافر إلى ديربت، حيث قارع العوز باستمرار، بل استطاع أن ينهي دورة من ثلاث سنوات. لم تكن قابليات بيغاسوف تتخطى رتبته الاعتيادية. كان يتميز بالصبر والإصرار، ولكن شعور الغرور والرغبة في الانضمام إلى مجتمع جيد وعدم التخلف عن الآخرين كان قوياً في نفسه بشكل خاص، نكاية بالقدر وقد جعله هذا الغرور يدرس باجتهاد، ويدخل جامعة ديربت. وكان الفقر يُخنقه وينمي فيه روح الملاحظة والشيطنة. كان يتكلم بطريقة متفردة، ومنذ شبابه أتقن لنفسه لوناً خاصاً من ذلاقة اللسان الصفراوية المغتاظة. ولم تكن أفكاره ترتفع عن المستوى العام، ولكنه كان يتكلم بطريقة تجعله يبدو رجلاً ذكياً جداً، وليس ذكياً فقط. وعندما حصل على درجة مرشح عزم على أن يكرس نفسه للعلم. فقد أدرك أنه لن يستطيع في أي مجال آخر أن يجاري رفاقه (كان يسعى إلى أن يختارهم من وسط رفيع، ويحسن كسب ثقتهم، بل ويتزلف لهم، على الرغم من أنه كان يشتمهم باستمرار)، ولكن مهارته هنا، وإذا قلنا ببساطة، لم تكن

تكفي. فإن تعليمه لنفسه لم يكن عن حب للعلم، فكان بيغاسوف، في جوهر الأمر، يعرف النزر اليسير جداً. فسقط سقوطاً ذريعاً في النقاش، بينما الطالب الآخر الذي كان معه في غرفة وا حدة، والذي كان بيغاسوف يضحك منه باستمرار، وهو رجل محدود الأفق للغاية، ولكنه حاصل على تعليم سليم ومتين انتصر انتصاراً تاماً. وأثار هذا الإخفاق جنون بيغاسوف، فألقى كل كتبه وكراريسه في النار، واشتغل في وظيفة. ومضى الأمر في البداية بشكل لا بأس به. فكان موظفاً موفقاً على الرغم من أنه لم يكن حسن الإدارة، ولكنه كان واثقاً من نفسه للغاية، سليطاً. غير أنه أ حب أن يشق طريقه إلى الترقية أسرع، فتورط، وتعثر، واضطر إلى الاستقالة. وقضى حوالي ثلاثة أعوام في قريته الصغيرة التي كسبها من موارده، وإذا به يتزوج من مالكة أراض غنية نصف متعلمة اصطادها بشص طرائقه الاستخفافية الساخرة. إلا أن طبع بيغاسوف كان قد احتد للغاية وحَمُز، وثقلت عليه الحياة الزوجية...

عاشت زوجته معه عدة سنين، وسافرت إلى موسكو سراً وباعت ضيعتها لنّصاب حاذق، في حين أن بيغاسوف كان قد بنى لتوه داراً فيها. هزته هذه الضربة الأخيرة من الأساس فرفع دعوى على زوجته، ولكنه لم يكسب منها شيئاً... فظل يقضي بقية حياته وحيداً، ويسافر إلى الجيران الذين كان يشتمهم في غيابهم، وحتى في حضورهم، والذين كانوا يستقبلونه بقهقهة مستترة متوترة، على الرغم من أنه لم يكن يثير فيهم فزعاً جدياً. ما تناول كتاباً في يده قط. وكان يملك زهاء مئة من الأقنان، وفلاحوه لم يكونوا بؤساء.

ـ آ ! !Constantin ـ قالت داريا ميخايلوفنا حالما دخل باندا ليفسكي غرفة الجلوس ـ هل ستأتي Alexandrine؟

ـ طلبت الكسندرا بافلوفنا أن أشكرك نيابة عنها على المتعة الخاصة التي ستحظى بها، ـ ردّ قسطنطين ديوميديتش، وهو ينحني في جميع الجهات، ماسأ شعره الممشط في روعة بيده البدينة والبيضاء مع ذلك، بأظافرها المقلّمة على شكل مثلث.

ـ وفولينتسيف، هل سيأتي أيضاً؟

ـ نعم.

تابعت داريا ميخايلوفنا قولها مخاطبة بيغاسوف:

ـ وكيف، يا أفريكان سيميونيتش، جميع الأوانس في رأيك غير طبيعيات؟

التوت شفتا بيغاسوف إلى جنب، واهتز كوعه بعصبية.

وشرع يقول بصوت متوان:

ـ أنا أقول ـ وكان في أشد نوبات القساوة يتكلم ببطء ووضوح ـ أنا أقول إن الأوانس بشكل عام، وطبيعي أنني أسكت عن الحاضرات...

قاطعته داريا ميخايلوفنا :

ـ ولكن ذلك لا يمنعك من التفكير فيهن أيضاً.

كرر بيغاسوف:

ـ اسكت عنهن. جميع الأوانس غير طبيعيات في أعلى درجة، غير طبيعيات في التعبير عن مشاعرهن. فالآنسة، مثلاً، سواء أن ارتعبت، أو فرحت بشيء، أو اكتأبت، لابد أن تحني جسمها، في البداية، مثل هذه الانحناءة الرشيقة أو غيرها ـ وطوى بيغاسوف قوامه بشكل قبيح، وأبرز ذراعيه ـ ثم تصيح: آه، أو تضحك أو تبكي. ومع ذلك (وهنا ابتسم بيغاسوف برضى عن النفس) فقد وفقت ذات مرة على انتزاع تعبير حقيقي صادق من آنسة غير طبيعية بشكل رائع!

ـ بأية طريقة؟

التمعت عينا بيغاسوف:

ـ وخزتها في جنبها من الخلف بوتد من شجر الحور. فأرسلت زعقة، فقلت لها: مرحى! مرحى! هذا صوت الطبيعة، وكانت صيحة طبيعية. وفي المستقبل أيضاً تصرفي هذا التصرف دائماً.

ضحك كل الحاضرين في الغرفة.

وهتفت داريا ميخايلوفنا:

ـ ما هذه السفاسف التي تقولها، يا أفريكان سيميونيتش!

ليس من الممكن أن أصدق بأنك تدفع فتاة من جنبها بوتد!

ـ والله، بوتد، ووتد كبير جداً كتلك التي تستخدم في الدفاع عن قلعة.

زعقت m-lle boncourt، وهي تنظر إلى الطفلين الضاحكين متوعدة:

Mais c'est une horreur ce que vous dittes là, monsieur

قالت داريا ميخايلوفنا:

ـ ولكن لا تصدقي به. هل معقول أنك لا تعرفينه.

ظلت الفرنسية المستاءة وقتاً طويلاً غير قادرة على أن تهدئ نفسها، وبقيت طوال الوقت تتمتم بشيء مع نفسها.

وتابع بيغاسوف بصوت بارد:

ـ يمكنكم ألا تصدقوني. ولكن أؤكد أنني قلت حقيقة واقعة. ومَنْ يعرف بها، إذا لم يكن أنا؟ وبعد هذا أخشى أن لا تصدقوني إ ذا قلت إن جارتكم تشوبوزوفا، يلينا انتونوفنا، نفسها، لاحظوا، قالت لي نفسها كيف أماتت ابن عمها اللح؟

ـ أنت تختلق أيضاً!

ـ اسمحوا! اسمحوا!! استمعوا، واحكموا بأنفسكم. ليكن في بالكم أنني لا أود الافتراء عليها، بل أنا أحبها، بقدر مايمكن أن تحب امرأة عموماً. في بيتها كله لا يوجد كتاب واحد، ما عدا التقويم، ولا تستطيع أن تقرأ إلا بصوت مسموع، وهذا الجهد يشعرها بتصبب العرق، وتشكو بعد ذلك بأن عينيها برزتا من محجريهما... باختصار إنها امرأة طيبة، وخادماتها بدينات. فلماذا أفتري عليها؟

ـ اها! ـ قالت داريا ميخايلوفنا ـ ركب افريكان سيميونيتش بغلته، ولن ينزل عنها حتى المساء.

ـ بغلتي.... للنساء ثلاث بغلات بالتمام لا ينزلن عنها إلا إذا أوين إلى النوم.

ـ وما هي هذه البغلات الثلاث؟

ـ اللوم، والغمز، والتقريع.

قالت داريا ميخايلوفنا:

ـ أتعرف، يا افريكان سيميونيتش، ليس حنقك على النساء بهذا الشكل، دون سبب. لعل إحدى النساء...

قاطعها بيغاسوف:

ـ بالضبط، أساءت إليَّ إحدى النساء، على الرغم من أنها كانت طيبة، وطيبة جداً.

ـ من هذه؟

خفض بيغاسوف صوته، وقال:

ـ أمي.

ـ أمك؟

ـ بأي شيء أساءت إليك؟

ـ بأنها ولدتني...

غضنت داريا ميخايلوفنا حاجبيها، وأنشأت تقول:

ـ يبدو لي أن حديثك يتخذ منعطفاً غير مبهج...

Constantin، اعزف لنا دراسة تالبرغ الجديدة... فلعل أصوات الموسيقى تهدئ من ثائرة افريكان سيميونيتش . كان اورفيوس[٧] يهدئ بنغماته الوحوش الضارية.

جلس قسطنطين ديوميديتش إلى البيانو، وعزف الدراسة عزفاً مقبولاً جداً. في بادئ الأمر أصغت ناتاليا الكسييفنا باهتمام، ثم عادت ثانية إلى شغلها.

قالت داريا ميخايلوفنا :

ـ Merci, c'est charmant، أنا أحب تالبرغ.

Il est si distingué، ما يشغل بالك، يا افريكان سيميونيتش؟

شرع بيغاسوف يقول ببطء:

ـ أعتقد أن هناك ثلاثة أصناف من الأنانيين: هناك أنانيون يعيشون ويتركون الآخرين يعيشون[٨]، وأنانيون يعيشون هم ولا يتركون الآخرين يعيشون، وأنانيون لا يعيشون ولا يتركون الآخرين يعيشون... والنساء في معظمهن ينتمين إلى الصنف الثالث.

ـ ما أهذب كلامك! لا يدهشني إلا شيء واحد، يا افريكان سيميونيتش، وهو أن لك مثل هذا الاقتناع الذاتي في آرائك، وكأنما لا يمكن أن تخطئ أبداً.

ـ من يقول! أنا أيضاً أخطئ.. الرجل أيضاً قد يخطئ ولكن ألا تعرفين أي فرق بين خطأ الرجل وخطأ المرأة؟ لا تعرفين؟ الفرق هذا: الرجل يستطيع أن يقول: مثلاً، أن مرتين اثنين ليست أربعة بل خمسة أو ثلاثة ونصف، بينما المرأة تقول مرتين اثنين هي شمعة الستيارين.

ـ أظنني قد سمعت ذلك منك قليلاً... ولكن اسمح لي أن أسأل: ماهي علاقة فكرتك عن أصناف الأنانيين الثلاثة بالموسيقى التي سمعتها قبل لحظات؟

ـ لا توجد، كما أنني لم أسمع موسيقى.

ـ أوه، كفاك، يا أبتي، لا أرى صلاحاً لك، مهما فعلنا بك ـ ردّت داريا ميخايلوفنا محرفة بيت غريبويدوف[٩] قليلاً ـ ماذا تحب إذاً، إذا كانت الموسيقى نفسها لا تروق لك؟ الأدب؟

ـ أنا أحب الأدب، ولكن ليس أدب اليوم.

ـ ولماذا؟

ـ اشرح لك السبب. قبل مدة قصيرة كنت أعبر نهر أوكا على عبّارة مع أحد السادة، فانجرفت العبّارة إلى موضع شديد الانحدار، وكان على الملاحين أن يرفعوا

العربات بأيديهم. وكان لهذا السيد في العبارة عربة ثقيلة جداً. وطوال ماكان عمال العبّارة يرفعون العربة، دافعين إياها إلى الشاطئ كان السيد يولول وهو واقف على العبّارة، ولولة تدفع حتى إلى الرثاء له... فقلت لنفسي: هذا التطبيق الجديد لنظام تقسيم الأعمال. وهكذا الحال في أدب اليوم: الآخرون يحملون، ويقومون بالعمل، أما الأدب فيولول.

ابتسمت داريا ميخايلوفنا. وتابع بيغاسوف الذي لا يتعب:

ـ وهذا يسمى انعكاس الحياة المعاصرة، التعاطف العميق مع القضايا الاجتماعية، وشيئاً ما آخر... آه، يا لها من هذه الكلمات الطنانة!

ـ ولكن النساء اللواتي تهاجمهن بهذا الشكل لا يستخدمن الكلمات الطنانة.

هزَّ بيغاسوف كتفيه.

ـ لا يستخدمنها، لأنهن لا يحسِّن ذلك.

احمرت داريا ميخايلوفنا قليلاً، وقالت بابتسامة متكلفة:

ـ بدأت تتجاسر في الكلام، يا افريكان سيميونيتش.

وران الصمت على الحجرة.

وفجأة سأل أحد الصبيين باسيستوف

ـ أين تقع زولوتونوشا؟

أسرع بيغاسوف يجيب:

ـ في ولاية بولتافا، يا أعز عزيز، في أوكرانيا نفسها (وقد سرّ بفرصة تغيير موضوع الحديث) ثم تابع:

ـ كنا نتحدث عن الأدب، لو كنت أملك نقوداً فائضة. لصرت في الحال شاعراً أوكرانياً.

قالت داريا ميخايلوفنا :

ـ وأي شيء بعد؟ تصلح شاعراً! معقول إنك تعرف اللغة الأوكرانية؟

ـ ولا النزير القليل منها، ولكن لا حاجة حتى إلى معرفتها.

ـ كيف لا حاجة؟

ـ ببساطة، لا حاجة. لا يقتضي الأمر غير أن تؤخذ ورقة.

ويكتب في أعلاها «خاطرة»، ويستهل على النحو التالي: «آه، يا حظي، يا حظي!»، أو «القوزاقي ناليفايكو جالس على رابية» وبعد ذلك «عبر السفح، وعبر

الخضرة، ها، ها!» أو شيء من هذا القبيل. ويتم الأمر . وما عليك إلا أن تطبعه وتنشره وسيقرأه الأوكراني، ويوسد خده على يده، ويبكي، لا محالة. فإن له مثل هذه النفس السريعة التأثر!

هتف باسيستوف :

ـ رحماك! ما هذا الذي تقوله؟ لا يجمعه جامع بأي شيء.. لقد عشت في أوكرانيا، وأنا أحبها، وأعرف لغتها. كلامك «عبر السفح، عبر الخضرة، عبر» لا معنى له على الإطلاق.

ـ ممكن، ومع ذلك فالأوكراني سيبكي. أنت ذكرت اللغة... ولكن هل من المعقول أن هناك لغة أوكرانية؟ ذات مرة طلبت من أوكراني أن يترجم العبارة التالية التي أخذتها لا على التعيين «النحو هو فن القراءة والكتابة السليمتين». فترجمها بتشويه تلفظها، لا غير. فهل هذه لغة، حسب رأيك؟ لغة مستقلة؟ أفضل أن يدق أحسن صديق لي في هاون على أن أوافق على ذلك...

همّ باسيستوف أن يعترض. غير أن داريا ميخايلوفنا قالت:

ـ اتركه. تعرف أنك لن تسمع منه غير المغالطات.

ابتسم بيغاسوف ابتسامة سامة. دخل خادم وأعلن عن وصول الكسندرا بافلوفنا وأخيها.

نهضت داريا ميخايلوفنا لاستقبال ضيفيها. قالت وهي تتقدم من ضيفتها:

ـ مرحباً! Alexandrine حصافة منك أنك أتيت... مرحباً، سيرغي بافليتش!

صافح فولينتسيف داريا ميخايلوفنا، وتقدم من ناتاليا الكسييفنا.

سأله بيغاسوف:

ـ هل سيأتي البارون، صاحبك الجديد؟

ـ نعم، سيأتي.

ـ يقال إنه فيلسوف عظيم تراه دائماً يطفح بهيغل.

لم تقل داريا ميخايلوفنا شيئاً. أجلست الكسندرا بافلوفنا على الأريكة، وجلست بالقرب منها. وتابع بيغاسوف قوله:

ـ الفلسفة أعلى وجهة نظر! تقتلني وجهات النظر العليا هذه. وماذا يمكن أن ترى من الأعلى؟ فأنت لو أردت أن تشتري حصاناً، فلا أظن أنك ستتفحصه من أعلى برج.

سألت الكسندرا بافلوفنا :

ـ أهذا البارون أراد أن يجلب لك مقالة ؟

ـ نعم، مقالة ـ أجابت داريا ميخايلوفنا باستخفاف مضخّم ـ عن علاقات التجارة بالصناعة في روسيا... ولكن لا تخافي. لن نقرأها هنا.. لم أدعك لهذا الغرض.

Le baron est aussi aimable que savant. C'est un vrai torrentì il vous entraîne..

ويتكلم الروسية جيداً!.

دمدم بيغاسوف :

ـ يتكلم الروسية جيداً جداً بحيث إنه يستحق ثناء فرنسياً.

ـ دمدم، افريكان سيميونيتش ، دمدم... فهذا يتلاءم كثيراً مع تصفيفة شعرك المنفوشة... ولكن لماذا لا يأتي؟ ـ ثم أضافت داريا ميخايلوفنا ، وهي تتلفت فيما حولها ـ دعوني أقول messieurs et mesdames لكم لنخرج إلى الحديقة... ما يزال هناك نحو ساعة على وقت الغداء، ثم إن الطقس بهي.

نهض جميع الحضور، واتجهوا إلى الحديقة.

كانت حديقة داريا ميخايلوفنا تمتد حتى النهر. وفيها طرق كثيرة معرشة بأشجار الزيزفون المعمرة، ذهبية داكنة، شذية، وفي أطرافها فسحات زمردية، والكثير من ظليلات الأقاسيا والليلك.

توغل فلوينتسيف مع ناتاليا و إلى m-lle boncourt أقصى الحديقة. سار إلى جانب ناتالي صامتاً. و m-lle boncourt تتبعهما على مبعدة.

وأخيراً سأل، وهو يجذب طرفي شاربه الكتاني الداكن البديع:

ـ ماذا فعلتم اليوم؟

كانت ملامح وجهه شديدة الشبه بأخته، ولكن التعبير المرتسم عليها أقل تعابثاً وحياة، وكان في عينيه الجميلتين الحنونتين شيء من الحزن.

أجابت ناتاليا:

ـ لا شيء. سمعت كيف يشتم بيغاسوف، وطرزت على الطرة، وقرأت.

ـ ماذا قرأت؟

قالت ناتاليا بقليل من التلعثم:

ـ قرأت... تاريخ الحملات الصليبية.

نظر فولينتسيف إليها. ثم قال أخيراً:

ـ آه. لابد أن ذلك ممتع.

قطع غصناً، وأخذ يديره في الهواء، وقطعا حوالي عشرين خطوة أخرى، وعاد فولينتسيف يسأل:

ـ مَنْ هذا البارون الذي تعرفت عليه أمك؟

ـ ضابط حاشية من بطرسبورغ تمتدحه maman كثيراً.

ـ أمك شخصية سريعة الانجذاب.

قالت ناتاليا معلقة:

ـ وهذا يثبت أنها ما تزال شابة جداً بقلبها.

ـ نعم، سأرسل لك حصانك قريباً، إنه الآن مدرّب على الركوب كلياً تقريباً. أحب أن ينطلق من مكانه في عدو سريع، وسأحقق ذلك.

ـ Merci.... ومع ذلك فأنا أشعر بإحراج. فأنت نفسك تدربه... يقولون إن التدريب صعب جداً.

ـ أنت تعرفين، يا ناتاليا الكسييفنا، أنني مستعد لأن أوفر لكم أقل متعة... أنا.... وليس مثل هذه التوافه...

وضحك فولينتسيف.

رمقته ناتاليا بنظرة ودود، وقالت Merciمرة أخرى.

وبعد فترة صمت طويلة تابع سيرغي بافليتش قوله:

ـ أنت تعرفين، لا يوجد شيء أعجز من عمله لأجلك... ولكن مالي أقول هذا! فأنت تعرفين كل شيء.

في تلك اللحظة رنّ جرس في البيت. فهتفت:

- m-lle boncourt.- Ah! La cloche du diner! rentrons.

وفكرت هذه الفرنسية العجوز مع نفسها، وهي تصعد درجات الشرفة في إثر فولينتسيف وناتاليا:

Quel dommage, quel dommage que ce charmant garcon ait si peu» de ressourses dans la conversationì.«

ممايمكن أن يترجم إلى الروسية كالآتي: أنت، يا عزيزي، لطيف، ولكنك سيّئ قليلاً.

لم يصل البارون عند الغداء. انتظروه نصف ساعة. ولم ينعقد الحديث وراء المائدة. كان سيرغي بافليتش لا يفتأ يرنو إلى ناتاليا التي كانت جالسة قربه، ويصب الماء في قدحها مرة بعد أخرى. وكان باندااليفسكي يسعى جاهداً إلى إشغال جارته الكسندرا بافلوفنا، وقد فاض بمعسول الكلام، أما هي فتثاءبت أو كادت.

وكان باسيستوف يدحرج كرات الخبز الصغيرة، ولا يفكر في شيء. وحتى بيغاسوف لزم الصمت، وحين ذكرت داريا ميخايلوفنا له بأنه اليوم جاف جداً، أجابها وعقا: «ومتى كنت غير جاف؟ ليس هذا من شأني... ـ وكشر عن ابتسامة ساخرة مرة، وأضاف ـ تحملي قليلاً. فأنا كفأس، كفأس روسي Du prostoi، أما صاحبك ضابط حاشية...».

صاحت داريا ميخايلوفنا :

ـ مرحى! بيغاسوف يغار، يغار قبل الأوان!

ولكن بيغاسوف لم يرد عليها بشيء، واكتفى بأن نظر إليها جهم الأسارير.

دقت الساعة السابعة، فعاد الجميع إلى حجرة الجلوس.

قالت داريا ميخايلوفنا :

ـ يبدو أنه لن يأتي.

ولكن كركبة عربة ترددت في اللحظة التالية، ودخلت الفناء عربة صغيرة، وبعد بضع لحظات، دخل الخادم حجرة الجلوس، وقدم لداريا ميخايلوفنا رسالة على صحن صغير من الفضة. مررت بصرها على الرسالة حتى نهايتها، وسألت ملتفتة إلى الخادم:

ـ وأين السيد الذي جلب هذه الرسالة؟

ـ جالس في العربة. هل تأمرين باستقباله؟

ـ ليتفضل.

ـ خرج الخادم، ومضت داريا ميخايلوفنا تقول:

ـ تصوروا أي خسارة. تلقى البارون مذكرة بالعودة إلى بطرسبورغ حالاً. فأرسل لي مقالته مع سيد يدعى رودين، هو صديقه. وكان البارون يريد أن يقدمه لي. امتدحه كثيراً. ولكن ياللخسارة! كنت آمل أن يقيم هنا قليلاً...

أعلن الخادم:

ـ ديمتري نيقولايفيتش رودين.

- ٣ -

دخل رجل في نحو الخامسة والثلاثين من العمر، طويل القامة مرفوع الكتفين محني الظهر قليلاً، أجعد الشعر، أسمر البشرة، وجهه غير متناسق، ولكنه معبّر وذكي، وعيناه الزرقاوان الداكنتان السريعتان فيهما لمعة رقراقة، وأنفه مستقيم عريض، وشفتاه مرسومتان بشكل جميل. وكان لباسه غير جديد وضيقاً، وكأنما صار صغيراً عليه.

تقدم مندفعاً نحو داريا ميخايلوفنا، حياها بانحناءة قصيرة، وقال لها إنه منذ زمان كان يودّ أن يتشرف بتقديم نفسه لها، وأن صديقه البارون آسف كثيراً لأنه لم يستطع أن يأتي إليها بنفسه مودّعاً.

لم تكن رنة صوت رودين تتناسب مع طول قامته، واتساع صدره.

- تفضل اجلس... أنا مسرورةجداً.

قالت داريا ميخايلوفنا ، وعرفته بجميع الحاضرين، وسألته هل هو من هذه المنطقة، أم وافد عليها.

أجاب رودين وهو يمسك قبعته على ركبتيه:

- ضيعتي في ولاية تـ... وقد جئت إلى هنا في مهمة منذ مدة قصيرة، ونزلت في المدينة، مركز قضائكم.

- عند مَنْ؟

- عند الدكتور. إنه أقدم رفيق لي في الجامعة.

ـ آها! عند الدكتور... الناس يثنون عليه. يقولون إنه يعرف أسرار مهنته. وهل تعرفت مع البارون منذ زمان؟

ـ التقيت به في موسكو في هذا الشتاء، والآن قضيت في بيته زهاء أسبوع.

ـ البارون رجل ذكي جداً.

ـ أجل.

ـ شمّت داريا ميخايلوفنا لفة منديل جيب مشبّع بماء الكولونيا.

وسألت:

ـ هل أنت في وظيفة؟

ـ مَنْ؟ أنا؟

ـ نعم.

ـ لا... أنا متقاعد عن الخدمة.

ساد صمت قصير. ثم استؤنف الحديث.

توجه بيغاسوف إلى رودين قائلاً:

ـ هل لي أن أسأل عما إذا كنت تعرف محتوى المقالة التي أرسلها السيد البارون؟

ـ أعرف.

ـ هذه المقالة تعالج علاقات التجارة، أولاً، سهوتُ، علاقات الصناعة بالتجارة في وطننا.... نعم، هكذا، على ما يبدو، أليس كذلك، يا داريا ميخايلوفنا؟

ـ نعم، عن هذا الموضوع....

قالت داريا ميخايلوفنا، ووضعت يدها على جبينها.

وتابع بيغاسوف يقول:

ـ أنا، بالطبع، حَكَم سيئ في هذه الأمور. ولكن يجب أن أعترف بأن عنوان المقالة نفسه يبدو لي غاية في.... كيف يمكن التعبير بشكل ألطف؟... غاية في الإبهام والشريكة.

ـ ولم يبدو لك كذلك؟

ضحك بيغاسوف ضحكة ساخرة مقتضبة، وانزلقت نظراته على داريا ميخايلوفنا.

ـ وهل هو واضح لك؟ ـ قال، وعاد يدير وجهه الثعلبي نحو رودين.

ـ لي؟ واضح.

ـ حم... بالطبع أنت تعرف ذلك أحسن.

سألت الكسندرا بافلوفنا داريا ميخايلوفنا.

ـ هل عندك صداع؟

ـ لا. هذا ما يحدث.... .C'est nerveux

وعاد بيغاسوف يقول بصوت أنفي:

ـ هل لي أن أسأل عما إذا كان صاحبك السيد البارون موفيل... هذا اسمه، على ما يبدو؟

ـ بالضبط.

ـ عما إذا كان السيد البارون موفيل مختصاً بدراسة الاقتصاد السياسي، أم يكرس لهذا العلم الممتع ساعات فراغه فقط، تلك التي تتبقى من بين متع الحياة الدنيوية وأشغال الوظيفة؟

تفرس رودين بيغاسوف، وأجاب محمراً قليلاً:

ـ البارون هاو في هذا الموضوع. ولكن المقالة تحتوي على الكثير من الأشياء المحقة والمثيرة للاهتمام.

ـ لا أستطيع أن أجادلك، وأنا لا أعرف المقالة... ولكن أجرؤ على أن أسأل ربما أن كتابة صاحبك، البارون موفيل، تتبع الأفكار العامة أكثر من الحقائق؟

ـ فيها حقائق وأفكار مستندة على حقائق.

ـ اها، اها، لأعرض لك رأيي... على أية حال أنا أستطيع أن أقول كلمتي عند الضرورة. لقد قضيت في دير بب ثلاثة أعوام... إن كل ما يسمى بالأفكار العامة، والفرضيات، والأنظمة... أرجو المعذرة، فأنا من الأقاليم وأقول الحقيقة ولا أداور... لا ينفع في شيء.. كل ذلك من الذهن، وبه يضللون الناس لا غير. أوردوا حقائق، أيها السادة، وكفى.

ردّ رودين:

ـ هذا صحيح. لكن، هل ينبغي إيراد معنى الحقائق؟

استمر بيغاسوف يقول:

ـ الأفكار العامة! موتي هذه الأفكار العامة، عروض، استنتاجات! كل ذلك قائم على ما يسمى بالمعتقدات. وكل يتحدث عن معتقداته، وعلاوة على ذلك يطالب بأن نحترمها، ويدلّلها... إيه!...

وهزّ بيغاسوف قبضته في الهواء. وضحك باندااليفسكي.

قال رودين:

ـ رائع! يعني لا توجد معتقدات، في رأيك؟

ـ لا، لا توجد.

ـ أهذا معتقدك؟

ـ نعم.

ـ وكيف تقول لا وجود لها؟ هاقد سجلت نقطة واحدة للبداية.

ابتسم جميع مَنْ في الحجرة، وتبادلوا النظرات.

شرع بيغاسوف يقول:

ـ اسمحوا لي، اسمحوا لي، على كل حال...

إلا أن داريا ميخايلوفنا أخذت تصفق، هاتفة: «مرحى، مرحى، بيغاسوف انهزم، انهزم!» وسلّت القبعة من يدي رودين على مهل.

ـ لا تتعجلي بإظهار الفرح، يا سيدة. أمامك وقت! ـ قال بيغاسوف في ضيق ـ لا يكفي قول كلمة لاذعة، بمظهر التفوق، بل يجب الإثبات، يجب دحض ما قيل قبلاً... خرجنا عن موضوع النقاش.

قال رودين ببرود أعصاب:

ـ اسمح لي. القضية بسيطة جداً. أنت لا تؤمن بفائدة الأفكار العامة، ولا تؤمن بالمعتقدات...

ـ لا أؤمن، لا أؤمن، لا أؤمن بأي شيء.

ـ لطيف جداً، أنت متشكك.

ـ لا أرى ضرورة في استخدام هذه الكلمة العلمية. على العموم...

تدخلت داريا ميخايلوفنا قائلة:

ـ لا تقاطع!

«انهش، انهش، انهش!» قال باندااليفسكي في سره في تلك اللحظة، وكشّر تكشيرة عريضة.

ومضى رودين يقول:

ـ هذه الكلمة تعبر عن فكرتي. وأنت تفهمها. فلماذا لا أستخدمها؟ أنت لا تؤمن بشيء... فلماذا تؤمن بالحقائق؟

ـ لماذا؟ شيء رائع! الحقائق شيء معروف، والجميع يعرفون ماهي الحقائق... وأنا أحكم عليه بالتجربة، بإحساسي الخاص.

ـ وكأن الإحساس لا يمكن أن يخدعك! الإحساس يقول لك إن الشمس تدور حول الأرض... أو، ربما أنت لا تتفق مع كوبير نيك؟ ربما لا تصدق به؟

سرت الابتسامات على جميع الوجوه مرة أخرى، وتوجهت الأنظار كلها إلى رودين. وفكر كل من الحاضرين: «شخص لا يعوزه الذكاء!».

قال بيغاسوف:

ـ أنت تجعل من كل شيء مزحة. بالطبع، هذا شيء أصيل جداً، ولكنه لا ينسجم مع الفعل.

اعترض رودين عليه قائلاً:

ـ ما قلته حتى الآن فيه قليل جداً من الأصالة مع الأسف.

جميعه معروف منذ زمن بعيد جداً، وقيل ألف مرة. ليست المسألة في...

ـ فيم، إذاً؟ ـ سأل بيغاسوف دون أن يخلو من وقاحة.

كان بيغاسوف في النقاش يمازح الخصم في بادئ الأمر، وبعد ذلك يصير خشناً، وفي آخر الأمر تنتفخ أوداجه، ويصمت.

مضى رودين يقول:

ـ المسألة، هي أنني، وأعترف بذلك، لا يمكن إلا أن أشعر بالأسف الصادق، حين يهاجم الأذكياء بحضوري...

قاطعه بيغاسوف قائلاً:

ـ الأنظمة؟

ـ نعم، في ظني، الأنظمة على الأقل. لماذا تخيفك هذه الكلمة بهذا الشكل؟ كل نظام قائم على معرفة القوانين الأساسية، أسس الحياة...

ـ ولكن من المستحيل معرفتها، اكتشافها... أرجو المعذرة!

ـ على مهلك، إنها، بالطبع، ليست تحت متناول كل إنسان، والإنسان مجبول على الخطأ. وعلى أية حال، لعلك تتفق معي على أن نيوتن، مثلاً، اكتشف بعض هذه القوانين الأساسية على الأقل. ولنقل إنه كان عبقرياً، ولكن اكتشافات العباقرة عظيمة، لكونها أيضاً تصبح ملكاً للجميع. إن السعي إلى البحث فالكشف عن الأسس العامة في الظواهر الخاصة هو إحدى الصفات الجذرية للعقل الإنساني، وكل مالمعارفنا من سعة..

قاطعه بيغاسوف بصوت ممطوط:

ـ إلى هذا الحد توغلت! أنا رجل عملي، ولا أتعمق في كل الدقائق الميتافيزيقية هذه، ولا أريد أن أتعمق.

ـ حسن! هذه مشيئتك. ولكن لاحظ أن رغبتك في أن تكون رجلاً عملياً كلياً هي بحد ذاتها نظام، نظرية من نوعها الخاص...

التقط بيغاسوف كلمة رودين:

ـ تقول سعة المعارف! هذا شيء آخر تريد أن تثير الإعجاب به! لا حاجة، البتة، إلى سعة المعارف الممدوحة هذه! سعة معارفك هذه لن أشتريها بفلس.

ـ على كل حال، ما أردأ نقاشك، يا أفريكان سيميونيتش!

ـ قالت داريا ميخايلوفنا وهي في دخيلتها مرتاحة جداً لهدوء زائرها الجديد وتهذيبه الرقيق، ونظرت إلى وجه رودين باهتمام ودي، وقالت لنفسها «c'est un home comme il faut»، وآخر كلمات قالتها بالروسية في سرها هي: «تجب معاملته بلطف».

صمت رودين قليلاً، ومضى يقول:

ـ لن أدافع عن سعة المعارف. فهي ليست بحاجة إلى دفاع. أنت لا تحبها... ولكل ذواقه. إلى جانب ذلك قد يبعدنا هذا كثيراً. اسمح لي فقط أن أذكرك بمثل قديم: «أنت غاضب، يا جوبيتر، فمعنى ذلك أنت مذنب»أردت أن أقول إن كل هذه التهجمات على الأنظمة، على الأفكار العامة، وغير ذلك، محزنة بشكل خاص لأن الناس حين ينكرون الأنظمة ينكرون معها المعرفة عموماً والعلم والإيمان به، ومعنى ذلك أنهم ينكرون أيضاً الإيمان بأنفسهم، بقواهم. بينما الناس بحاجة إلى هذا الإيمان، ولا يجوز لهم أن يعيشوا على الانطباعات فقط، ومن الخطيئة لهم أن يخافوا الفكر ولا يثقوا به. إن مذهب الشك يتميز دائماً بالعقم والعجز....

تمتم بيغاسوف:

ـ هذه مجرد كلمات!

ـ يجوز. ولكن اسمح لي أن أنبهك إلى أننا حين نقول «هذه مجرد كلمات!» غالباً ما نرغب بأنفسنا في أن نتنحى عن ضرورة قول شيء أكثر كفاءة من الكلمات المجردة.

سأل بيغاسوف:

ـ ماذا ؟

وقلّص عينيه.

ـ أنت فهمت ماكنت أريد أن أقوله لك ـ ردّ رودين بنفاد صبر لا إرادي كبحه على الفور ـ وأكرر، إذا كان الإنسان لا يملك أساساً قوياً يؤمن به، ولا أرضاً يقف عليها بثبات، فكيف يمكن له أن يعي حاجات شعبه وأهميته ومستقبل أيامه؟ كيف يمكن له أن يعرف ما يجب أن يقوم به بنفسه، إذا كان...

قال بيغاسوف بتوقف:

ـ شرف ومكان!

وانحنى، وانتبذ ناحية، دون أن ينظر إلى أحد.

نظر رودين إليه، وابتسم ابتسامة ساخرة خفيفة، وصمت.

قالت داريا ميخايلوفنا:

ـ اها! لجأ إلى الهرب! لاتقلق، يا دميتري... اعذرني ـ أضافت بابتسامة حفيّة ـ ما اسم أبيك؟

ـ نيقولايتش.

ـ لا تقلق، يا دميتري نيقولايتش الكريم! إنه لم يخدع أحداً منا. يرغب في التظاهر بأنه لا يريد الاستمرار في الجدال...

يشعر بعدم قدرته على الجدال معك. الأفضل أن تجلس أقرب إلينا، ونتابع الكلام.

نقل رودين مقعده إلى مكان أقرب.

ومضت داريا ميخايلوفنا تقول:

ـ كيف لم نتعرف قبل الآن؟ هذا يدهشني... هل قرأت هذا الكتاب؟ C'est de Tocqueville, vouse savez?(١٠)

وقدمت داريا ميخايلوفنا الكراسة الفرنسية إلى رودين.

تناول رودين الكتيب، وقلّب بعض صفحاته، وأعاده إلى موضعه على المنضدة، وأجاب أنه لم يقرأ هذا المؤلف بالذات للسيد توكفيل، ولكنه كثيراً ما فكر في المسألة التي عالجها. وانعقد الحديث. في البداية كان رودين كالمتردد، فلم يجرؤ أن يفصح عن أفكاره، لم يجد الكلمات، إلا أن الحماس غلبه أخيراً، فراح يتحدث. وبعد ربع ساعة كان صوته وحده يتردد في الحجرة.

وتجمهر الجميع متحلقين حوله.

وبقي بيغاسوف وحده منعزلاً في ركن قرب الموقد. تكلم رودين بذكاء وحرارة وكفاءة، وكشف عن كثير من المعرفة، وكثير من المطالعة. لم يتوقع أحد أن يجد فيه شخصاً ممتازاً... كان معتدل الملبس كثيراً، لم يسمع أحد عنه غير القليل جداً من الشائعات. وبدا غير مفهوم للجميع وغريباً أن يظهر مثل هذا الأريب في القرية بهذه الصورة. على الأخص وقد أدهش الجميع، ويجوز القول إنه سحرهم ابتداء من داريا ميخايلوفنا... افتخرت هذه بلقطتها، وراحت تفكر مسبقاً كيف تقدم رودين إلى المجتمع الراقي. كان في انطباعاتها الأولى الكثير مما يقرب من الطفولة، على الرغم من تقدم سنها. ولم تفهم الكسندرا بافلوفنا، والحق يقال، غير القليل من كل ما قاله رودين، ولكنها اندهشت كثيراً وسرت، وكذلك اندهش أخوها. وكان باندااليفسكي يراقب داريا ميخايلوفنا والحسد في قلبه. وفكر بيغاسوف مع نفسه: «سأعطي خمسمئة روبل، لأجد لكم شحروراً أفضل!»، ولكن باسيستوف وناتاليا كانا أكثرهم انبهاراً. كان باسيستوف متقطع الأنفاس، فاغر الفم طوال الوقت، مبحلق العينين، يصغي ويصغي بصورة لم يصغ بها لأحد منذ مولده.

وتغشى وجه ناتاليا بنقاب من الحمرة، وبصرها مصوّب إلى رودين لا يريم، وقد دكن والتمع...

همس فولينتسيف لها:

ـ له عينان رائعتان!

ـ نعم، لطيفتان.

ـ خسارة أن يديه كبيرتان وحمراوان.

ولم تجب ناتاليا بشيء...

وقدم الشاي. واشتركت في الحديث أطراف أكثر، ولكن كان من الممكن الحكم على قوة التأثير الذي يحدثه رودين في جميع الحاضرين من مجرد الصمت الفجائي الذي كان يعمهم جميعاً، حالما يفتح فمه. استولت على داريا ميخايلوفنا رغبة مفاجئة في أن تناكد بيغاسوف. تقدمت منه، وقالت بصوت خافض: «لماذا أنت ساكت لا نرى منك غير ابتسامة مسمومة؟ حاول أن تشتبك معه ثانية»، ودون أن تنتظر الجواب دعت رودين بإشارة من يدها.

وقالت له، وهي تشير إلى بيغاسوف:

ـ ما يزال هناك شيء واحد ما تزال لا تعرفه عنه. إنه يمقت النساء بشكل مريع، ويهاجمهن بلا هوادة. أرجوك أن تعيده إلى الصراط المستقيم.

نظر رودين إلى بيغاسوف... من فوق، رغماً عنه، فقد كان أطول منه بمقدار رأسين، وكان بيغاسوف يتلوّى من شدة الغيظ، وامتقع وجهه الصفراوي.

أنشأ يقول بصوت متخلخل:

ـ داريا ميخايلوفنا مخطئة. أنا لا أهاجم النساء وحدهن، أنا عازف عن الجنس البشري كله.

سأل رودين:

ـ ما الذي جعلك تكوّن هذا الرأي السيئ عنه؟

نظر بيغاسوف في عينيه تماماً.

ـ أغلب الظن من دراستي لقلبي الذي اكتشف فيه كل يوم أكثر فأكثر من النجس. وأنا أحكم على الآخرين بما أراه في نفسي. ربما هذا غير منصف، وأنا أسوأ كثيراً من الآخرين ولكن ماذا تأمر أن أفعل؟ عادة!

رد رودين:

ـ أنا أفهمك، وأتحسس شعورك، فأية روح نبيلة لم تعان من ظمأ إدانة نفسها بنفسها؟ ولكن لا ينبغي البقاء في هذا الوضع المسدود.

قال بيغاسوف:

ـ شكري الجزيل على منحك نفسي شهادة النبل. ولكن وضعي لا بأس به، غير سيئ، وحتى إذا كان فيه مخرج، فلا يهمني. فإنني لن أبحث عنه.

ـ ولكن ذلك يعني ـ واعذرني على التعبير ـ تفضيل إرضاء حب الذات على الرغبة في أن تنضوي وتعيش في الحقيقة...

هتف بيغاسوف :

ـ طبعاً! حب الذات أنا أفهمه، وآمل أنك أيضاً تفهمه، وأي إنسان يفهمه. ولكن الحقيقة، ماهي الحقيقة؟ أين هي، هذه الحقيقة؟

قالت داريا ميخايلوفنا ملاحظة:

ـ أنت تكرر نفسك. أنبهك.

رفع بيغاسوف كتفيه:

ـ وما الضير في ذلك؟ أنا أسأل: أين الحقيقة؟ حتى الفلاسفة لا يعرفون ماهي. كانت يقول: هي كذا، وهيغل يقول لا، أنت تكذب، هي كذا.

سأله رودين دون أن يرفع صوته:

ـ وهل تعرف ماذا يقول هيغل عنها؟

واصل بيغاسوف كلامه محتداً:

ـ أكرر أنني لا أستطيع أن أفهم ماهي الحقيقة. أعتقد لا وجود لها في الدنيا على الإطلاق. الاسم موجود، ولكن المسمّى غير موجود.

صاحت داريا ميخايلوفنا:

ـ خي! خي! كيف لا تخجل من هذا الكلام، أيها الآثم العجوز! لا توجد حقيقة؟ ولأجل أي شيء نعيش في الدنيا بعد هذا؟

ردّ بيغاسوف في ضيق:

ـ ولكن أعتقد، يا داريا ميخايلوفنا، أن حياتك بدون حقيقة ستكون، في كل الأحوال، أسهل عليك من أن تكون بدون طباخك ستيبان الخبير جداً بتحضير حساء اللحم! قولي من فضلك ما حاجتك إلى الحقيقة؟ فالإنسان لا يمكن أن يفصّل منها قلنسوة.

قالت داريا ميخايلوفنا:

ـ النكتة ليست اعتراضنا، ولاسيما حين تنحدر إلى افتراء...

ـ لا أعرف فيما يتعلق بالحقيقة، ولكن الحق يوخز العيون.

تمتم بيغاسوف، وانتحى جانباً مضطرم القلب.

وبدأ رودين يتحدث عن حب الذات، وتحدث بجدية كبيرة. كان يثبت أن الرجل ضئيل الأهمية بلا حب لذاته، وأن حب الذات هو عتلة أرخميدس التي يمكن أن نرفع الأرض بها من مكانها، ولكن الذي يستحق اسم الإنسان هو، في الوقت نفسه، من يستطيع أن يأخذ بزمام حبه لذاته، مثلما يأخذ الفارس بزمام حصانه، مَنْ يضحي بشخصه في سبيل الخير العام...

وانتهى إلى القول:

ـ حب الذات هو انتحار. والرجل المحب لذاته يجف كشجرة وحيدة عقيمة، ولكن حب الذات، كسعي نشيط نحو الكمال، هو ينبوع كل ماهو عظيم... أجل، يجب على الإنسان أن يحطم الأنانية العنود لشخصيته، لكي يعطي هذه الشخصية حق الإفصاح عن نفسها!

خاطب بيغاسوف باسيستوف:

ـ ألا تعيرني قلماً؟

لم يفهم باسيستوف في الحال سؤال بيغاسوف له. وأخيراً قال:

ـ وما حاجتك إلى قلم؟

ـ أريد أن أكتب هذه العبارة الأخيرة التي قالها السيد رودين. أخشى أن أنساها إذا لم أكتبها! أنتم معي بأن مثل هذه العبارة على أية حال مثل ربح الخزنة كلها في لعبة ورق واحدة.

قال باسيستوف بحماس:

ـ هناك أشياء من الإثم الضحك منها والمساس بها، يا أفريكان سيميونيتش.

وتنحى عن بيغاسوف.

وفي غضون ذلك تقدم رودين من ناتاليا، فنهضت، وعلا وجهها الارتباك.

ونهض فولينتسيف أيضاً، وكان جالساً جنبها.

وشرع رودين يقول بنعومة ورقة، كالأمير السائح:

ـ أرى بيانو. ألستِ التي تعزفين عليه؟

قالت ناتاليا:

ـ نعم، أعزف، ولكن ليس عزفاً جيداً جداً، ولكن هذا قسطنطين ديوميديتش يعزف أفضل مني بكثير.

أظهر باندااليفسكي وجهه، وكشف عن أسنانه بتكشيرة.

ـ ماكان لك أن تقولي هذا، يا ناتاليا الكسييفنا، فعزفك ليس أسوأ من عزفي أبداً.

سأل رودين:

ـ هل تعرف «Erlkönig» لشوبرت[١١]؟.

أسرعت داريا ميخايلوفنا تقول:

ـ يعرفها، يعرفها! اجلس، يا Constantion... وأنت يا دميتري نيقولايتش، هل تحب الموسيقى؟

اكتفى رودين بانحناءة صغيرة من رأسه، ومرر يده على شعره، وكأنما يستعد للاستماع... وبدأ باندااليفسكي يعزف.

وقفت ناتاليا قرب البيانو، قبالة رودين تماماً، ومن الصوت الأول اكتسى وجهه تعبيراً جميلاً، وهامت عيناه الداكنتا الزرقة ببطء، لتقعا على ناتاليا من حين لآخر. وانتهى باندااليفسكي من العزف.

لم يقل رودين شيئاً، وتقدم من النافذة المفتوحة، كان غسق شذي يخيم على الحديقة كنقاب خفيف، والأشجار القريبة تفوح طراوة ناعسة، والنجوم ترسل ضوءها الخافت بهدوء، والليل الصيفي يهنأ، ويهنئ الناس. حدق رودين في الحديقة المظلمة، والتفت وقال:

ـ ذكرتني هذه الموسيقى، وهذه الليلة بأيامي، حين كنت طالباً في ألمانيا، باجتماعاتنا وألحان السيريناد.

سألت داريا ميخايلوفنا

ـ أكنت في ألمانيا؟

ـ قضيت سنة في هايدلبيرغ وحوالي سنة في برلين.

ـ ولبست زي الطلبة؟ يقال إن لهم زياً خاصاً هناك.

ـ في هايدلبيرغ كنت ألبس حذاءً طويل الرقبة بمهمازين، وسترة هنغارية بأشرطة، وقد أرسلت شعري حتى كتفيّ... وفي برلين كان الطلبة يلبسون كما يلبس الناس الآخرون.

قالت الكسندرا بافلوفنا :

ـ حدثنا شيئاً عن حياتك الجامعية.

وشرع رودين يروي. ولم يكن موفقاً في روايته تماماً، فقد كانت أوصافه خالية من التلاوين. لم يكن يحسن التفكه. وعلى أية حال فقد انتقل بعد قليل من قصص تجوالاته في الخارج، إلى أفكار عامة عن أهمية التثقيف والعلم، وعن الجامعات، والحياة الجامعية بشكل عام. وبخطوط عريضة جريئة رسم لوحة هائلة. استمع الجميع إليه باهتمام عميق. كان يتكلم بمهارة وتشويق، وبلا وضوح تام... ولكن هذا الوضوح غير التام أضفى على أحاديثه سحراً خاصاً.

كانت غزارة الأفكار تعيق رودين عن التعبير عنها بدقة وعلى وجه التحديد. كانت الصور تتابع، والتشابيه تتعاقب جريئة تارة بشكل غير متوقع، وصادقة تارة بشكل مذهل. وكان ارتجاله العجول لا ينم عن حذلقة رضى عن النفس لمتحدث محنك، بل عن إلهام، لم يكن يبحث عن الكلمات متقصداً، بل كانت الكلمات ترد بنفسها على لسانه طائعة سلسة، وكانت كل كلمة تنسكب وحدها من روحه، وتغمر الجميع بحرارة اليقين. كان رودين يمتلك البلاغة الموسيقية التي تكاد أن تكون أرفع سر. وكان يحسن بالضرب على أوتار القلب وحدها، أن يجعل كل الأوتار الأخرى

تهتز وترن رنيناً مبهماً. ربما أن أحداً من المستمعين لم يكن يفهم بالدقة ما كان يتحدث عنه، ولكن صدره قد امتلأ بالهواء، وانزاحت أسدال عن عينيه، وتراءى أمامه شيء ساطع.

بدت أفكار رودين موجهة كلها إلى المستقبل، مما أضفى عليها طموحاً وفتوة... كان يتحدث وهو واقف عند النافذة دون أن يوجه بصره إلى أحد على وجه التحديد، محفزاً بمشاركة الجميع له بالعاطفة، وبالاهتمام، وقرب امرأتين شابتين منه، وجمال الليل، مغموراً بسيل أحاسيسه، فكان يسمو إلى البلاغة، إلى سماء الشعر... وكانت رنة صوته نفسها المكثفة الهادئة تضخم جاذبيته، وبدا وكأن شيئاً رفيعاً غير متوقع له نفسه يجري على شفتيه تلقائياً... كان رودين يقول إنه يولي أهمية خالدة لحياة الإنسان الزائلة.

وختم رودين حديثه كالآتي:

ـ أتذكر أسطورة اسكندنافية تقول إن قيصراً كان يجلس مع محاربيه حول نار في سقيفة طويلة مظلمة. وكان ذلك في ليلة شتائية. وفجأة يدخل طائر صغير من باب مفتوح، ويخرج من آخر. فيقول القيصر إن هذا الطائر مثل الإنسان في الدنيا، يأتي من ظلام ويطير إلى ظلام، ولا يلبث في الدفء والنور إلا قليلاً...

فيعترض أكبر محاربيه سناً، قائلاً: «أيها القيصر، الطائر في الظلام لا يهلك، بل ويجد عشاً له...». وكذلك حياتنا بالضبط سريعة وضئيلة. ولكن كل ماهو عظيم يتحقق على أيدي الناس. إن وعي الإنسان بكونه أداة لتلك القوة السامية يجب أن يعوضه عن كل المسرات الأخرى، فيجد في الموت نفسه حياته، عشه...

توقف رودين، وأطرق ببصره بابتسامة ارتباك لا إرادي.

قالت داريا ميخايلوفنا بصوت خافض:

ـ Vousâtes un poète

ووافقها الجميع في سرهم، الجميع ما عدا بيغاسوف. لم ينتظر أن يتم رودين خطبته الطويلة، حتى تناول قبعته خلسة، وهمس مغتاظاً وهو ينصرف، لباندااليفسي الذي كان واقفاً قرب الباب:

ـ لا! لأذهب إلى الحمقى!

وعلى أية حال، لم يبقه أحد، ولم يلحظ غيابه أحد.

وقدم طعام العشاء وبعد نصف ساعة انصرف الجميع ماشين أو راكبين. رجت

داريا ميخايلوفنا رودين أن يبقى ليقضي الليلة في بيتها. وأثناء عودة الكسندرا بافلوفنا إلى البيت مع أخيها أبدت عجبها وانبهارها غير مرة من عقل رودين غير الاعتيادي. وافقها فولينتسيف، ولكنه لاحظ أن تعابيره أحياناً ملتبسة قليلاً... وأضاف: يعني ينقصها الصفاء، وهو يريد، على ما يبدو، أن يوضح فكرته، إلا أن الكآبة علت وجهه، واتجه بصره إلى ركن العربة، فبدا أكثر كآبة.

وقال باندالـيفسكي بصوت مسموع، وهو يخلع علاّقة بنطاله المطرزة بالحرير ليأوي إلى فراشه: «رجل بارع جداً»، ونظر إلى خادمه الشخصي نظرة صارمة، وإذا به يأمره بالخروج. ولم ينم باسيستوف الليل كله، ولم يخلع ملابسه، وظل حتى الصباح يكتب رسالة إلى رفيق له في موسكو. أما ناتاليا، فعلى الرغم من أنها خلعت ملابسها، وأوت إلى فراشها، إلا أنها لم تغف دقيقة واحدة، بل ولم تغمض عينيها. أسندت رأسها على يدها، وراحت تتفرس في الظلمة، وتسارعت نبضات عروقها بشكل محموم، وظل صدرها غالباً ما يصعّد زفرة عميقة.

- ٤ -

ما كاد رودين يرتدي ملابسه في صباح اليوم التالي حتى جاء إليه رسول من داريا ميخايلوفنا يدعوه بالتفضل إلى حجرة مكتبها، وتناول الشاي معها، وجدها رودين وحدها. حيّته بلطف جم، واستفسرت هل قضى ليلة طيبة، وصبت له قدح شاي بنفسها، بل وسألت: هل السكر كاف، وقدمت له سيكارة، وكررت مرتين أو أكثر أن ما يدهشها أنها لم تتعرف عليه منذ زمان. كان رودين قد جلس على مبعدة قليلة منها، إلا أن داريا ميخايلوفنا أشارت له إلى أريكة صغيرة كانت إلى جانب مقعدها، ومالت قليلاً إلى ناحيته، وراحت تسأله عن عائلته، عن ما ينويه وما يخطط له مستقبلاً. كانت تتحدث بقلة اكتراث، وتستمع شاردة الذهن، ولكن رودين أدرك حق الإدراك بأنها تلاطفه، وتكاد تتزلف إليه. فليس عبثاً أنها هيأت هذا اللقاء الصباحي وليس عبثاً أنها كانت ترتدي ملابس بسيطة، ولكنها أنيقة. a la madame Récamier وعلى أية حال فإن داريا ميخايلوفنا سرعان ما كفت عن الاستفسار عنه، وأخذت تتحدث عن نفسها، وعن شبابها، وعن الناس الذين كانت تعرفهم. أصغى رودين إلى أطنابها بتعاطف، على الرغم من أن داريا ميخايلوفنا - ويالللغرابة! - كانت تبقى وحدها في الصدارة مهما يكن الشخص الذي تتحدث عنه، أما ذلك الشخص فكان ينزوي ويختفي. وبالمقابل ذلك عرف رودين بالتفصيل ما كانت داريا ميخايلوفنا تقوله لهذا أو ذاك من الوجهاء، والتأثير الذي كانت تمارسه على هذا أو ذاك من الشعراء. ومن حكايات داريا ميخايلوفنا يمكن أن يفكر المرء أن

جميع المشاهير في السنين الخمس والعشرين الأخيرة لم يحلموا إلا برؤيتها وكسب الحظوة عندها. كانت تتحدث عنهم ببساطة وبدون كثير من الانشراح والثناء، مثلما تتحدث عن أهل بيتها، واصفة بعضهم بغرباء الأطوار. كانت تتحدث عنهم، وكما يحيط إطار ثمين بحجر كريم كانت أسماؤهم كحاشية لامعة تحيط بالاسم الرئيس - اسم داريا ميخايلوفنا ...

وكان رودين يصغي، ويدخن، ويلتزم الصمت، ومن حين لآخر فقط، كان يدخل بعض الملاحظات الصغيرة في حديث السيدة المثرثرة. كان يحسن ويحب الكلام، ولكن لم تكن من طبعه سياقة الحديث، غير أنه كان يحسن الإصغاء أيضاً. وكل من كان يسلم من رهبته في البداية، كان ينطلق بالحديث في حضوره عن ثقة، إذ كان رودين يتابع خيط حديث الآخرين عن طيب خاطر واستحسان. كان فيه الكثير من دماثة النفس، تلك الدماثة المعينة التي يتشبع بها أولئك الذين تعودوا على أن يحسوا بأنفسهم أعلى من الآخرين. وفي النقاشات كان نادراً ما يترك خصمه يعرب عن رأيه، كان يخنقه بجدليته النزاعة الجياشة بالعاطفة.

كانت داريا ميخايلوفنا تعبّر باللغة الروسية، وتتبختر بمعرفتها للغتها القومية، على الرغم من أن سمات اللغة الفرنسية والكلمات الفرنسية كانت ترد في كلامها كثيراً. وكانت تتقصد استخدام التعابير الشعبية، ولكن ليس بنجاح دائماً. لم تجرح برقشة الكلام الغريبة على لسان داريا ميخايلوفنا إذن رودين، ومن المستبعد أن يعيرها أذناً.

تعبت داريا ميخايلوفنا أخيراً، وألقت برأسها على وسادة المقعد الخلفية، وثبتت عينيها في رودين، وصمتت.

وشرع رودين يقول:

- أنا أفهم الآن، أفهم لماذا تسافرين إلى القرية كل صيف، فإن هذه الاستراحة ضرورية لك. فالهدوء الريفي، بعد حياة العاصمة ينعشك ويقويك. أنا واثق من أنك لا محالة تحسين بمحاسن الطبيعة.

حدجته داريا ميخايلوفنا بنظرة من طرف عينيها.

- الطبيعة... نعم... نعم... بالطبع... أحبها حباً هائلاً. ولكن، لعلك تعرف دميتري نيقولايتش، حتى في الريف يتعذر العيش بدون الناس. ولا يوجد أحد هنا تقريباً. وبيغاسوف أذكى إنسان هنا.

سأل رودين:

ـ أهو ذلك العجوز الغاضب الذي كان يوم أمس؟

ـ نعم، هو، بالمناسبة، حتى هو ينفع في القرية. على الأقل يُضحك.

رد رودين:

ـ رجل لا يعوزه الذكاء. ولكنه سائر في طريق زائف. ولا أدري هل ستقفين معي، يا داريا ميخايلوفنا إذا قلت إن في الرفض التام والشامل لا يوجد نعيم. إذا رفضت كل شيء استطعت بسهولة أن يذاع عنك أنك ذكية. هذه شطارة معروفة. والطيبون مستعدون في الحال إلى أن يستنتجوا أنك أرفع من الذي ترفضينه. وهذا غير صحيح في كثير من الأحيان. أولاً من الممكن أن تجدي لطخات في كل شيء، وثانياً حتى إذا ما تقولينه صحيحاً، فذلك أسوأ. معنى ذلك أن عقلك المتجه إلى الرفض فقط يفتقر ويجف. فأنت في تطمينك لحب ذاتك تحرمين نفسك من متع التأمل الحقيقية. والحياة، جوهر الحياة، يفلت من ملاحظتك الضئيلة الصفراوية، وينتهي الأمر بك إلى أن تنبحي وتضحكي الناس. لا يحق الرفض والشتم إلا لمن يحب.

قالت داريا ميخايلوفنا: Voi là m -r Pigassof enterré. ما أمهرك في تشخيص الإنسان! على العموم، ماكان بيغاسوف سيفهمك، في أغلب الظن، إنه لا يحب إلا نفسه.

فأكمل رودين قائلاً:

ـ ويشتمها ليحق له شتم الآخرين.

ضحكت داريا ميخايلوفنا.

ـ كيف يقول المثل: من المذنب على البريء. بالمناسبة ما رأيك في البارون؟

ـ في البارون؟ إنه رجل فاضل، طيب القلب، وعليم ولكن ليست له شخصية.. وسيظل طوال عمره نصف متعلم، نصف راق، أي سطحي المعرفة، يعني بصريح العبارة، لا شيء.. وهذا مؤسف!

قالت داريا ميخايلوفنا:

ـ لي الرأي نفسه، قرأت مقالته:

Entre nous.. cela a assez peu de fond.

سأل رودين بعد أن صمت برهة:

ـ ومن عندكم هنا أيضاً:

نفضت داريا ميخايلوفنا الرماد من سيكارتها بخنصرها.

ـ لا أجد تقريباً. ليبينا، الكسندرا بافلوفنا التي رأيتها يوم أمس لطيفة جداً، ولكن هذا وحسب. وأخوها أيضاً شخص رائع un parfait honnête homme وأنت تعرف الأمير غارين. ولا أحد غيرهم. بقي هناك جاران أو ثلاثة، ولكنهم لا شيء على الإطلاق. إما أن تراهم يتبخترون، إذ لهم ادعاءات طويلة عريضة، وإما أن ينزوون، أو يتوقحون، في غير ما مناسبة. وأنا لا أرى سيدات من المنطقة، كما تعرف. وهناك جار آخر، يقال إنه مثقف جداً، بل وعالم، ولكنه غريب الأطوار بشكل فظيع، من فرسان الأحلام. و Alexandrine تعرفه، وأظنها ليست بدون اكتراث له... حبّذا لو تهتم بها، يا دميتري نيقولايتش، إنها مخلوقة حبيبة إلى القلب، ينبغي فقط أن تُطوَّر قليلاً، من كل بد ينبغي أن تُطور!

قال رودين:

ـ إنها لطيفة جداً.

ـ طفلة تماماً، يا دميتري نيقولايتش، طفلة حقاً، كانت متوجة، mais x'est tout comme ولو كنت رجلاً لما أحببت غير مثل هؤلاء النساء.

ـ معقول؟

ـ بالتأكيد. مثل هؤلاء النساء نضرات على أقل تقدير، والنضارة لا يمكن أن تُصنَع.

ـ والتصنّع ممكن في كل الأشياء الأخرى؟

سأل رودين، وضحك، وهذا نادرٌ جداً ماكان يحدث له. وحين كان يضحك كان وجهه يكتسب تعبيراً غريباً يقرب من الشيخوخة، وعيناه تنكمشان، وأنفه يتغضن...

وسأل:

ـ ومن ذلك الغريب الأطوار الذي تقولين إن السيدة ليبينا ليست بدون اكتراث له؟

ـ شخص من أهل الريف هنا يدعى ميخايلو ميخايليتش ليجنيف.

ظهرت الدهشة على رودين، ورفع رأسه، وسأل:

ـ ليجنيف، ميخايلو ميخايليتش؟ هل هو جارك؟

ـ نعم، وهل تعرفه؟

صمت رودين.

ـ كنت أعرفه من قبل... من زمان ـ وأضاف، وهو يتلمس بيده مخمل المقعد ـ يبدو لي أنه رجل ثري؟

ـ نعم، ثري، ولو أ نه يهمل لباسه بشكل فظيع، ويركب عربة خفيفة، مثل وكيل أعمال. وددت أن أقرّبه مني، يقال إنه ذكي، ولي شغل معه... فهل تعرف أنني أدير ضيعتي بنفسي؟

أحنى رودين رأسه. وتابعت داريا ميخايلوفنا تقول:

ـ نعم، بنفسي. لن أستخدم أي حماقات أجنبية، بل أعتمد على ماهو روسي، وها أنت ترى أن الأمور ماشية بشكل لا بأس به.

أضافت ذلك، وأدارت ذراعها فيما حولها .

قال رودين بأدب:

ـ كنت موقناً دائماً بالظلم الصارخ الذي يرتكبه أولئك الناس الذين ينكرون على النساء فكرهن العملي.

ابتسمت داريا ميخايلوفنا بارتياح، وقالت:

ـ أنت سَمح جداً. ولكن، أوه، ماذا كنت أريد أن أقول؟

عم كنا نتحدث؟ نعم، عن ليجنيف. لي شغل معه في رسم حدود الأرض. دعوته عدة مرات ليزورني، وحتى اليوم أنا في انتظاره، ولكنه لا يأتي، والله يعلم السبب... إنه غريب الأطوار بهذا الشكل!...

انزاحت الستارة أمام الباب بتؤدة، ودخل رئيس الخدم، وهو رجل طويل أشيب أصلع في سترة فراك سوداء وربطة عنق بيضاء، وصدار أبيض.

سألته داريا ميخايلوفنا:

ـ ماذا وراءك: ؟ ـ والتفتت إلى رودين قليلاً، وأضافت بصوت خافض ـ [١٢]

أعلن رئيس الخدم:

وصل ميخايلو ميخايليتش ليجنيف. فهل تأمرين باستقباله؟

هتفت داريا ميخايلوفنا:

ـ أوه، يا إلهي! مَنْ تذكره تجده، ليتفضل!

خرج رئيس الخدم:

ـ انظر إلى غرابة أطواره، وصل أخيراً، وليس في الوقت المناسب، قطع حديثنا.

نهض رودين من مكانه، إلا أن داريا ميخايلوفنا أبقته.

ـ إلى أين؟ يمكن أن نتحدث بحضورك أيضاً. بودي لو تشخصه مثلما شخصت بيغاسوف. عندما تتكلم vous gravez comme avec un burin ابق في مكانك.

أراد رودين أن يقول شيئاً، ولكنه فكر قليلاً، وبقي.

دخل غرفة المكتب ميخايلو ميخايليتش الذي تعرف عليه القارئ من قبل. كان يرتدي المعطف الرمادي نفسه، ويحمل في يديه الملوحتين القبعة القديمة نفسها، انحنى لداريا ميخايلوفنا بهدوء، وتقدم من مائدة الشاي.

قالت داريا ميخايلوفنا:

ـ وأخيراً، تكرمت بالمجيء، مسيو ليجنيف! تفضل اجلس.

أنتما متعارفان، كما سمعت.

تابعت قولها، وهي تشير إلى رودين.

رمق ليجنيف رودين بنظرة، وابتسم ابتسامة لاحت غريبة وقال بانحناءة صغيرة:

ـ أنا أعرف السيد رودين.

فذكر رودين بصوت خافض:

ـ كنا في الجامعة معاً.

وخفّض بصره. فقال ليجنيف ببرود:

ـ والتقينا بعدها أيضاً.

نظرت داريا ميخايلوفنا إلى كليهما بشيء من الدهشة، ورجت ليجنيف أن يجلس، فجلس.

وشرع يقول:

ـ هل رغبت في أن ترتني بشأن رسم الحدود؟

ـ نعم، بشأن رسم الحدود. ولكن وددت لو أراك عموماً.

فنحن جاران قريبان، ولنا رابطة قربى.

قال ليجنيف:

ـ أنا شاكر لك جداً. أما بخصوص رسم الحدود، فأنا ومدير أعمالك انتهينا منه تماماً. أنا موافق على كل اقتراحاته.

- كيف أعرف ذلك.

- سوى أنه قال لا يجوز التوقيع على الوثيقة بدون لقائي معك شخصياً.

- نعم، هذا ماجريت عليه. بالمناسبة، اسمح لي أن أسأل:

هل أن كل فلاحيك يعملون باللزمة؟

- بالضبط.

- وأنت بنفسك تنشغل برسم الحدود؟ هذا شيء يستحق الثناء.

صمت ليجنيف، ثم قال:

- وها أنا قد حضرت للالتقاء بك شخصياً.

ضحكت داريا ميخايلوفنا ضحكة ساخرة.

- أرى أنك قد حضرت. أنت تقول ذلك بهذه اللهجة....

يبدو أنك أكرهت نفسك كثيراً على أن تقصدني.

ردّ ليجنيف بفتور:

- أنا لا أقصد أي مكان.

- أي مكان؟ ولكنك تقصد الكسندرا بافلوفنا؟

- أعرف أخاها منذ زمان.

- أخاها! على العموم، أنا لا ألزم أحداً... ولكن اعذرني، يا ميخايلو ميخايليتش، أنا أكبر منك سناً، وأستطيع أن أجور عليك قليلاً: ما الذي يحدو بك إلى أن تعيش منعزلاً؟ أم أن بيتي لا يعجبك؟ وأنا لا أعجبك؟

- أنا لا أعرفك، داريا ميخايلوفنا، ولهذا من غير الممكن ألا تعجبيني. بيتك رائع، ولكنني أعترف لك بصراحة أنني لا أحب أن أضيق على نفسي. ليست لي بدلة فراك معتبرة، ولا قفازات، ثم إنني لا أنتمي إلى وسطكم.

- أنت تنتمي إلينا بالولادة وبالتربية، ميخائيلو ميخايليتش! Vous êtes des nôtres.

- دعي الولادة والتربية جانباً، داريا ميخايلوفنا! ليست المسألة...

- يجب أن يعاشر المرء الناس، ميخائيلو ميخايليتش! ما هذا الهوس في القعود، مثل ديوجينس في البرميل[١٣]؟..

- أولاً كان ديوجينس يطيب له العيش كثيراً فيه، وثانياً لماذا تعتقدين أنني لا أعاشر الناس؟

عضت داريا ميخايلوفنا شفتيها.

ـ هذا شيء آخر! يتبقى لي فقط أن آسف على أنني لم أتشرف في أن أكون في عداد من تعاشرهم.

تدخل رودين قائلاً:

ـ يبدو أن مسيو ليجنيف يبالغ في الشعور المحمود جداً، وهو حب الحرية.

لم يجب ليجنيف بشيء، واكتفى بأن رمق رودين بنظرة، ورانت برهة صمت قصيرة. وقال ليجنيف، وهو ينهض:

ـ إذاً، أستطيع أن أعتبر قضيتنا منتهية، وأطلب من مدير أعمالك أن يرسل لي الأوراق.

ـ تستطيع... على الرغم من أنك، وأعترف بهذا، لست لطيفاً جداً... كان ينبغي أن أمتنع عنك.

ـ ولكن رسم الحدود هذا أنفع لك بكثير مما هو لي.

هزت داريا ميخايلوفنا كتفيها. وسألت:

ـ لا تريد حتى أن تفطر على مائدتي؟

ـ أشكرك جزيل الشكر. أنا لا أتناول الفطور أبداً، ثم إنني أستعجل الذهاب إلى البيت.

نهضت داريا ميخايلوفنا، وقالت، وهي تقترب من النافذة:

ـ أنا لا أعيقك، ولا أجرؤ على إعاقتك.

أخذ ليجنيف ينحني مودعاً.

ـ مع السلامة، مسيو ليجنيف اعذرني على إزعاجك.

ـ لاشيء، تفضلي.

قال ليجنيف ذلك، وخرج.

سألت داريا ميخايلوفنا رودين:

ـ هل رأيت؟: سمعت أنه غريب الأطوار، ولكنه فالت تماماً!.

قال رودين :

إنه يعاني من العلة نفسها التي يعاني منها بيغاسوف ـ الرغبة في أن يكون متفرداً. ذلك يمثّل ميفيستوبل، وهذا يمثل كلبيا. وفي هذا كله الكثير من الأنانية، والكثير من حب الذات، والقليل من الحقيقة، القليل من الحب. وهذا أيضاً تدبير من

نوع خاص. فإذا ارتدى إنسان ما قناع اللا مبالاة والكسل، فلربما سيقول الناس عنه: كم قتل هذا الإنسان من مواهب في نفسه! ولو تطلعوا إليه باهتمام أكبر، لما وجدوا فيه أية مواهب.

قالت داريا ميخايلوفنا :

- Et de deux أنت رجل رهيب في التشخيص. لا يمكن أن يختفي إنسان عنك.

قال رودين:

- أتظنين ذلك؟... - ثم أضاف - على أية حال، في الحقيقة ماكان ينبغي عليَّ أن أتحدث عن ليجنيف، فقد كنت أحبه، أحببته، كصديق... ولكن فيما بعد، ونتيجة مختلف أنواع سوء التفاهم...

- تزاعلتما ؟

- لا، ولكن افترقنا، وافترقنا إلى الأبد، على ما يبدو.

- هذا ما لاحظته. طوال زيارته، كنت وكأنك في غير وضعك الطبيعي... وعلى أية حال، أنا أشكرك عظيم الشكر على هذا الصباح. فقد قضيت وقتاً ممتعاًجداً. والآن كفى. سأطلقك حتى الفطور، وسأذهب أنا لأداء أشغالي، ربما سكرتيري في انتظاري الآن، أنت تعـــرفـــه - Constantin c'est Iui qui est mon secrétaire, أوصيك به. فهو شاب ممتاز خدوم، ومفتون بك تماماً. إلى اللقاء، cher دميتري نيقولايتش. كم أنا ممتنة للبارون لأنه عرفني بك.

ومدّت داريا ميخايلوفنا يدها إلى رودين. صافحها في البداية، ثم رفعها إلى شفتيه، وخرج إلى القاعة، ومن القاعة إلى الشرفة. وفي الشرفة التقى ناتاليا.

- ٥ -

ربما لم تكن ناتالي الكسييفنا ابنة داريا ميخايلوفنا لتروق لأحد من الوهلة الأولى. فهي لم تلحق أن تنضج. كانت نحيلة سمراء، تحني ظهرها قليلاً. إلا أن قسمات وجهها كانت جميلة، وسليمة، ولو أنها أكبر بكثير بالنسبة لفتاة في السابعة عشرة. وكان جميلاً بشكل خاص جبينها الصافي السبَط فوق حاجبيها الدقيقين المشطورين في الوسط، كما يبدوان. كانت قليلة الكلام، تصغي وتنظر بانتباه، وإمعان تقريباً، وكأنما كانت تريد أن تنفذ إلى كل شيء. وكثيراً ما تقف بلا حراك، مسبلة الذراعين، مستغرقة في التفكير، وعند ذاك كان يرتسم على وجهها جهد الأفكار من الداخل... وفجأة تظهر على شفتيها ابتسامة لا تكاد تلحظ، وتختفي. وترفع عينيها الداكنتين الوسيعتين بهدوء... تسألها: m-IIe boncourt « Qu'avez - vous? » وتشرع بالنعي عليها قائلة إنه لا يليق بآنسة شابة أن تستغرق، ويلوح عليها شرود الذهن. ولكن ناتاليا لم تكن شاردة الذهن، بل على العكس، كانت تدرس باجتهاد، وتقرأ وتعمل عن طيب خاطر. وكانت مشاعرها عميقة وقوية، ولكنها مكتومة، وكانت تبكي حتى في طفولتها نادراً جداً. أما الآن فحتى إرسال الحسرات نادراً ما تقوم به، بل تشحب فقط، حين يغمها شيء. وكانت أمها تعتبرها فتاة حسنة السلوك، راجحة العقل، وتسميها مزاحاً: mon honnête home de fille ولكن لم يكن لها رأي رفيع جداً في قابلياتها العقلية. كانت تقول: «من حسن الحظ أن ابنتي ناتاشا باردة، ولا تشبهني... وهذا أفضل. ستكون سعيدة». وكانت داريا ميخايلوفنا مخطئة، وعلى العموم نادرة هي الأم التي تفهم ابنتها.

كانت ناتاليا تحب أمها داريا ميخايلوفنا، ولا تثق بها تمام الوثوق.

ذات مرة قالت داريا ميخايلوفنا لها:

ـ ليس لك ما تخفينه عني وإلا فلعلك تتكتمين. أنت، على أية حال، من ذوات الأفكار الخفية.

نظرت ناتاليا في وجه أمها، وفكرت في سرها: «لماذا لا أكون ذات الأفكار الخفية؟»

حين التقاها رودين على الشرفة دخلت هي وm-lle Boncourt الحجرة لترتدي قبعتها، وتخرج إلى الحديقة. وكانت دروسها الصباحية قد انتهت. لم تعد ناتاليا تعامل كفتاة صغيرة، وقد كفت m-lle Boncourt منذ زمان عن إعطائها دروساً في المثيولوجيا والجغرافية. ولكن كان على ناتاليا أن تقرأ كل صباح أمامها كتباً في التاريخ والسياحة ومؤلفات أخرى تثقيفية. وكانت داريا ميخايلوفنا تختارها لها، وكأنها تراعي نظامها الخاص بها. بينما في واقع الحال كانت تقتصر على أن تقدم لها كل ما يرسله لها بائع كتب فرنسي من بطرسبورغ، ما عدا روايات دوماس الابن وشركائه[١٤]. وكانت داريا ميخايلوفنا نفسها تقرأ هذه الروايات. كانت m-lle Bon-court تنظر من خلال نظارتها بصرامة شديدة وتذمر، حين كانت ناتاليا تقرأ الكتب التاريخية، فإن التاريخ، حسب مفاهيم هذه الفرنسية العجوز، مملوء بأشياء غير مسموح بها، على الرغم من أنها نفسها كانت لسبب ما لا تعرف من عظماء التاريخ القديم غير قمبيز، ومن الأزمنة الحديثة غير لويس الرابع عشر[١٥]، ونابليون الذي لم تكن تطيقه. ولكن ناتاليا كانت تطالع أيضاً كتباً لم يراود m-lle Boncourt شك في أنها موجودة.

فقد كانت تحفظ بوشكين كله عن ظهر قلب.

احمرّت ناتاليا قليلاً حين التقت برودين. سألها:

ـ أذاهبة للتنزه؟

ـ نعم، نحن خارجتان إلى الحديقة.

ـ وهل ممكن أن أذهب معكما؟

نظرت ناتاليا إلى m-lle Boncourt، فأسرعت هذه الآنسة العانس لتقول:

– Mais certainement, monsieur, avec plaisir.

تناول رودين قبعته، وخرج معهما.

في البداية كانت ناتاليا تجد حراجة في السير جنب رودين على درب واحد، ثم خفّ عليها الأمر قليلاً. أخذ يسألها عن دراستها، وعن رأيها في القرية، وكانت أجوبتها لا تخلو من تهيب، ولكن بدون ذلك الانكماش العجول الذي غالباً ما يعتبر خجلاً. وكان قلبها يخفق بشدة:

سأل رودين، وهو يحدجها بنظرة جانبية:

ـ ألا تستوحشين في القرية؟

ـ وكيف يمكن أن أستوحش في القرية. أنا مسرور جداً في وجودنا هنا، وسعيدة جداً.

ـ أنت سعيدة... هذه كلمة عظيمة. وعلى أية حال ذلك مفهوم، فأنت شابة.

لفظ رودين الكلمة الأخيرة بشيء من الغرابة. فكأنه يحسد ناتاليا، أو يرثي لها. أضاف:

ـ نعم! الشباب! غاية العلم كلها هي التوصل عن وعي إلى أن الشباب يوهب بلا مقابل.

كانت ناتاليا تمعن النظر في رودين. إذ لم تفهمه. تابع يقول:

ـ قضيت صباح اليوم كله في التحدث مع والدتك. إنها امرأة فريدة. أنا أفهم لماذا كان شعراؤنا جميعاً يعتزون بصداقتها ـ ثم أضاف بعد صمت قصير ـ وأنت، هل تحبين الشعر؟

فكرت ناتاليا مع نفسها: «إنه يمتحنني»، قالت:

ـ نعم، أحبه كثيراً.

ـ الشعر لغة الآلهة. أنا أيضاً أحب الشعر، ولكن الشعر ليس في القصائد وحدها. إنه يتدفق في كل مكان، إنه حولنا... تمعني في هذه الأشجار، في هذه السماء. الجمال والحياة يعبقان في كل مكان. وأينما كان الجمال والحياة كان الشعر أيضاً.

ومضى يقول:

ـ لنجلس هنا، على هذه المسطبة. نعم، هكذا. لا أدري لماذا يبدو لي أننا حين تألفينني (ونظر إلى وجهها مبتسماً) سنكون صديقين. ما رأيك؟

وعادت ناتاليا تفكر مع نفسها: «إنه يعاملني كفتاة صغيرة»، وسألته، وهي لا تعرف بماذا ترد عليه: هل ينوي البقاء في القرية طويلاً.

ـ الصيف كله، والخريف، وربما الشتاء. لست غنياً كما تعرفين. أعمالي انهارت، ثم إنني ضجرت من التنقل من مكان إلى آخر. حان أوان الراحة.

اندهشت ناتاليا، وسألت بتهيب:

ـ هل هو معقول أنك ترى أن أوان راحتك قد حان؟

أدار رودين وجهه إلى ناتاليا:

ـ ماذا تريدين أن تقولي بهذا؟

ـ قالت في شيء من الارتباك:

ـ أريد أن أقول إن الآخرين يمكن أن يستريحوا، أما أنت... فعليك أن تكدح، وتجاهد لأن تكون نافعاً... ومن غيرك إذا لم تكن أنت....

قاطعها رودين:

ـ شكراً على رأيك المُطري... من السهل القول أن أكون نافعاً! (ومرر يده على وجهه): أن أكون نافعاً! ـ أضاف ذلك ـ حتى وإن كانت لدي قناعة صلبة: كيف أستطيع أن أكون نافعاً ـ حتى ولو كنت مؤمناً بقواي ـ أين أجد القلوب الصادقة المتعاطفة؟...

وهزَّ رودين ذراعه بيأس شديد، وأطرق رأسه بحزن ظاهر حتى إن ناتاليا سألت نفسها بشكل لا إرادي: كفى، تُرى هل الأقوال المتحمسة المفعمة بالأمل التي سمعتها مساء أمس أقواله؟

وفجأة هز ناصية شعره الشبيهة بلبدة أسد، وأضاف:

ـ ليس الأمر كذلك، على العموم. هراء هذا، وأنت على حق.

أشكرك، ناتاليا الكسييفنا، أشكرك بإخلاص. (لم تعرف ناتاليا إطلاقاً على أي شيء يشكرها.). كلمتك وحدها ذكرتني بواجبي، ودلتني على طريقي... نعم، يجب أن أعمل وأؤثر. لا ينبغي أن أخفي موهبتي، إذا كانت لي موهبة، ولا ينبغي أن أبدد قواي على الكلام فقط، على الكلام الفارغ معدوم النفع، على الكلمات فقط...

وبدأت كلماته تتدفق كنهر. تحدث بروعة وحرارة وإقناع عن عار خمول النفس والكسل، وعن ضرورة القيام بعمل. وأمطر نفسه بالملامات، وكان يثبت أن الضرر الذي يسببه المرء حين يطرح مسبقاً ما يريد أن يفعله مثل الضرر الذي يسببه حين يوخز ثمرة مترعة بدبوس فيؤدي ذلك إلى تبديد القوى والعصارات لا غير. وأكد أن

أية فكرة نبيلة لابد أن تجد لها تعاطفاً، وأن هؤلاء الذين ما يزالون لا يعرفون ما يريدون، والذين لا يستحقون أن يفهمهم الناس، هم وحدهم يظلون غير مفهومين. تحدث طويلاً، وختم كلامه بأن شكر ناتاليا الكسييفنا مرة أخرى، وضغط على يدها بمفاجأة تامة، ولفظ: «أنت مخلوقة رائعة نبيلة!».

أذهل رفع الكلفة هذا m-lle Boncourt التي كانت على الرغم من إقامتها في روسيا أربعين عاماً تفهم اللغة الروسية بصعوبة، ولا تفتأ تندهش من سرعة الكلام وسلاسته على لسان رودين. وعلى كل حال فقد كان، في نظرها، بارعاً بشيء ما، على ما يبدو، أو ممثلاً، ومن المستحيل مطالبة مثل هؤلاء الناس بالحشمة، حسب مفاهيمها.

نهضت، وعدّلت ثوبها بحركة غاضبة، وأعلنت لناتاليا أن أوان العودة إلى البيت قد حان ولاسيما أن monsieur Volinsoff (وكانت تسمى فولينتسيف بهذا الشكل) أراد أن يحضر عند الفطور.

- وهاهو قادم!

أضافت، بعد أن ألقت نظرة إلى أحد الطرقات المعرشة المؤدية إلى البيت.

وبالفعل لاح شخص فولينتسيف غير بعيد.

تقدم بخطوات مترددة، وحيّا الجميع من بعيد، وخاطب ناتاليا، وعلى وجهه مسحة مرض.

- آه! تتنزهون؟

ردت ناتاليا:

- نعم. ونحن في طريقنا إلى البيت الآن.

لفظ فولينتسيف:

- أها! فلنذهب إذاً.

واتجه الجميع إلى البيت.

- كيف صحة أختك؟

وجه رودين هذا السؤال إلى فولينتسيف بصوت بادي الرقة.

وكان في اليوم البارح جم اللطف معه أيضاً.

- شكراً جزيلاً. إنها بخير. ربما ستأتي اليوم... يبدو أنكم كنتم تتناقشون في شيء، عندما أقبلت.

ـ نعم جرى حديث بين ناتاليا الكسييفنا، وبيني. قالت لي كلمة أثرت فيَّ تأثيراً قوياً...

ولم يسأل فلوينتسيف عن هذه الكلمة، وعاد الجميع إلى بيت داريا ميخايلوفنا مستغرقين بصمت عميق.

انعقد الصالون مرة أخرى قبيل الغداء. إلا أن بيغاسوف لم يحضر. ولم يكن رودين متحمساً لدخول نقاش. ظل طوال الوقت يدفع باندالييفسكي لعزف موسيقى بيتهوفن. واعتصم فولينتسيف بالصمت، وأطرق ببصره إلى الأرض. ولازمت ناتاليا أمها مستغرقة الفكر تارة، منشغلة في تطريزها تارة أخرى. ولم يصرف باسيستوف بصره عن رودين، منتظراً طيلة الوقت أن يقول شيئاً ذكياً. ومضت حوالي ثلاث ساعات على هذا المنوال الكئيب. لم تأت الكساندرا بافلوفنا إلى الغداء، أما فولينتسيف، فما إن نهضوا من وراء المائدة، حتى طلب إعداد عربته، وانسل دون أن يودع أحداً.

كان يشعر بضيق في النفس. فقد أحب ناتاليا منذ زمن بعيد، وظل طوال الوقت يتهيأ لخطب يدها... وكانت تميل إليه، إلا أن قلبها أضحى مطمئناً، وقد رأى ذلك بوضوح. وهو لم يكن يأمل في أن يثير فيها شعوراً أرق، ولم ينتظر إلا تلك اللحظة التي تألفه فيها كلياً، وتقترب منه. فما الذي كان من الممكن أن يقلقه؟ وما هو التغير الذي لحظه في هذين اليومين؟ فإن ناتاليا كانت تعامله كما كانت تعامله من قبل...

فهل تسرب إلى ذهنه أنه، ربما، لا يعرف ناتاليا البتة، وأنها غريبة عليه أكثر مما كان يظن، وهل استيقظت الغيرة في صدره، وتوجس شيئاً منحوساً... ولكنه كان يتعذب فقط، مهما طمأن نفسه.

عندما دخل على أخته، كان ليجنيف جالساً معها.

سألته الكسندرا بافلوفنا:

ـ لماذا عدت في هذه الساعة المبكرة؟

ـ هكذا . استوحشت.

ـ ورودين هناك؟

ـ نعم.

ألقى فولينتسيف قبعته، وجلس.

توجهت الكسندرا بافلوفنا إليه بحيوية:

ـ سيرغي، أرجوك، ساعدني في إقناع هذا الرجل العنيد (وأشارت إلى ليجنيف) بأن رودين رجل ذكي بشكل غير اعتيادي وبليغ.

حمحم فولينتسيف بشيء ما. وشرع ليجنيف يقول:

ـ ولكنني لا أجادلك في ذلك. أنا لا أشك في ذكاء السيد رودين وبلاغته، غير أني أقول فقط إنه لا يعجبني.

سأل فولينتسيف:

ـ وهل رأيته؟

ـ نعم، رأيته اليوم عند داريا ميخايلوفنا. فهو الآن وزير كبير عندها. سيمضي وقت وتفترق عنه أيضاً. إنها لن تفترق عن باندااليفسكي فقط، ولكن السيادة له الآن. نعم، رأيته، وكيف لا! كان جالساً معها، وأشارت إلي له، وكأنها تقول: انظر إليه، يا أبتي، أي غرباء أطوار عندنا. وأنا لست حصاناً أصيلاً، ولم أتعود على الانقياد. فلملمت نفسي، وخرجت.

ـ ولكن لماذا كنت عندها؟

ـ حول رسم الحدود، ولكن ذلك هراء. مجرد أنها كانت تريد أن ترى سحنتي. سيدة، هذا واضح!

قالت الكسندرا بافلوفنا بحرارة:

ـ تفوقه يجعلك تحس بالإهانة، هذا بالذات ما لا تستطيع أن تسامحه عليه. أنا واثقة من أن قلبه أيضاً ممتاز، لابد، وليس عقله فقط. انظر إلى عينيه، حين...

فبادر ليجنيف يقول:

ـ «يتحدث عن النزاهة السامية»[١٦]....

ـ أنت تغضبني، فأنا أبكي. أنا آسفة من كل قلبي على أنني لم أذهب إلى داريا ميخايلوفنا، وبقيت معك. أنت لا تستحق ذلك. كفاك إغاظة لي ـ أضافت بصوت شاك ـ الأفضل أن تحدثني عن شبابه.

ـ عن شباب رودين ؟

ـ نعم، فقد قلت لي إنك تعرفه جيداً، وأنتما متعارفان منذ زمان.

نهض ليجنيف، وتمشّى في الغرفة. وأنشأ يقول:

ـ نعم، أنا أعرفه جيداً. تريدين أن أحدثك عن شبابه؟

تفضلي. ولد في ت..... من أبوين من أصحاب الأراضي الفقراء. توفي أبوه سريعاً، وبقي مع أمه. كانت امرأة غاية في الطيبة، تحبه حباً جماً. كانت تقتات على دقيق الشوفان فقط، وتنفق عليه جميع ما عندها من نقود. تلقى تعليمه في موسكو، في البداية على نفقة عم ما، وبعد ذلك، حين كَبُر ونَضُج، على حساب أمير غني تواطأ معه... طيب، أرجو المعذرة... صادقه. ثم دخل الجامعة، وفيها عرفته، وصاحبته عن قرب شديد. سأحدثك عن حياتنا في ذلك الحين، ولكن فيما بعد، لا أستطيع الآن. وبعد ذلك سافر إلى الخارج...

ظل ليجنيف يذرع الغرفة، وكانت الكسندرا بافلوفنا تتابعه ببصرها، ومضى ليجنيف يقول:

ـ من الخارج كان رودين لا يراسل أمه إلا نُدرة، ولم يزرها إلا مرة واحدة، ولعشرة أيام... وتوفيت العجوز بغيابه، بين أيدي غريبة، ولكنها لم تصرف بصرها عن صورته حتى وفاتها. كنت أزورها، حين كنت أعيش في ت.... كانت امرأة طيبة، ومضيافة جداً، كانت تضيِّفني دائماً على مربى الكرز. كانت مغرمة بابنها ميتيا إلى حد الذهول. إن السادة من مدرسة بيتشورين[١٧] سيقولون لك إننا نحب دائماً الذين هم أنفسهم قليلو القدرة على الحب. بينما يبدو لي أن الأمهات جميعاً يحببن أولادهن، ولاسيما الغائبين منهم. وبعد ذلك التقيت رودين في الخارج. وقد تعلقت به هناك سيدة من جاليتنا الروسية، وهي امرأة فاقدة الأنوثة، ناذرة نفسها للعلوم، تخطت سن الشباب، ولم تكن جميلة، تماماً ككل اللواتي يماثلنها. ظل منشغلاً بها زمناً طويلاً، وأخيراً نبذها... أو، لا... سهوت، وأرجو المعذرة، هي التي نبذته. وعندئذ نبذته أنا أيضاً، وهذا كل مافي الأمر.

صمت ليجنيف، ومرّ يده على جبينه، وانهدَّ على المقعد كالمتعب.

قالت الكسندرا بافلوفنا:

ـ هل تعرف، يا ميخالو ميخايليتشن أرى أنك رجل حقود، حقاً لست أفضل من بيغاسوف. أنا واثقة من أن كل ما قلته صحيح، وأنك لم تلفق شيئاً، ومع ذلك فقد عرضت كل هذا من خلال روح غير ودية! تلك العجوز المسكينة، وتفانيها، وموتها وحيدة، وتلك السيدة... لم كل هذا؟ أتعرف أن تصوير حياة أفضل إنسان بمثل هذه الألوان، وبدون إضافة أي شيء، يمكن أن يدخل الرعب في كل قلب! وهذا أيضاً نوع معين من الافتراء!

نهض ليجنيف، وعاد يذرع الغرفة مرة أخرى. ثم تكلم أخيراً:

ـ ما أردت قط أن أرعبك، يا الكسندرا بافلوفنا. لست مفترياً. وعلى العموم ـ أضاف ذلك، بعد صمت قصير ـ بالفعل هناك نصيب من الحقيقة فيما قلته. أنا لم أفتر على رودين، ولكن ـ من يدري ! ـ ربما استطاع أن يتغير خلال فترة افتراقنا، وربما كنت غير محق معه.

ـ أها! صحيح كلامي إذاً. عِدْني بأن تستأنف تعارفك معه، واعرفه جيداً، وبعدئذٍ أخبرني برأيك النهائي فيه.

ـ طيب... ولكن لماذا أنت صامت، يا سيرغي بافليتش؟

جفل فولينتسيف ، ورفع رأسه، وكأنما أوقظ من غفوة.

ـ وماذا عليَّ أن أقول؟ أنا لا أعرفه. وفضلاً عن ذلك أعاني اليوم من صداع.

قالت الكسندرا بافلوفنا ملاحظة:

ـ بالضبط، أنت اليوم ممتقع الوجه. هل تشكو من توعُّك؟

كرر فولينتسيف :

ـ عندي صداع.

وخرج.

شيعته الكسندرا بافلوفنا وليجنيف ببصريهما، وتبادلا النظرات، ولكن لم يقل أحدهما للآخر شيئاً. فالذي كان يعتمل في قلب فولينتسيف لم يكن سراً، لا ليجنيف ولا لها.

- ٦ -

انقضى أكثر من شهرين، خلال هذه الفترة كلها لم يكد رودين يبارح داريا ميخايلوفنا. وما كانت هي لتستغني عنه. فقد صارت بحاجة مستديمة إلى أن تحدثه عن نفسها، وتستمع إلى أفكاره. ذات مرة أراد أن يغادر بحجة أن نقوده كلها قد نفدت. فأعطته خمسمئة روبل. كما استدان من فولينتسيف نحو مئتي روبل. وصارت زيارات بيغاسوف لداريا ميخايلوفنا أقل بكثير من ذي قبل. فقد كان رودين يضيّق عليه بحضوره. وعلى العموم لم يكن بيغاسوف وحده يعاني من هذا التضييق.

كان يقول:

ـ أنا لا أحب هذا اللوذعي. يتكلم بشكل غير طبيعي، تماماً كشخصية من قصة روسية. يقول: «أنا»، ومن التأثر يتوقف... «أنا، يعني، أنا...» طوال الوقت يستخدم كلمات طويلة. وإذا عطست فسيثبت لك في الحال لماذا عطست بالذات. ولم تسعل... ويمتدحك، وكأنما يمنحك ترقية... ويبدأ بلوم نفسه، ويلطخها بالوحل، فتتصور أنه لن يستطيع أن يواجه الناس بعد الآن. لا، مطلقاً! بل تراه منشرحاً، وكأنما قد ضيَّف نفسه على قدح من الفودكا المرة.

وكان باندالـيفسكي يخاف من رودين، ويرعاه على حذر. وكان فولينتسيف على علاقة غريبة معه. كان رودين يسميه الفارس، ويشيد به في حضوره وغيابه، ولكن فولينتسيف لم يقدر أن يحبه، فيحس بنفاد صبر لا إرادي وضيق، كلما شرع

رودين في حضوره بتعداد مناقبه. وكان يفكر مع نفسه: «ألعله يسخر مني؟» ويضطرب قلبه في صدره كراهية. جاهد فولينتسيف أن يتغلب على نفسه، ولكنه كان يغار منه على ناتاليا، ثم إن رودين نفسه لا يكاد يميل إليه، على الرغم من أنه كان يحييه دائماً بصخب، ويسميه الفارس، ويستدين منه النقود. وكان من العسير أن يحدد بالضبط ماكان يحس به هذان الرجلان، حين ينظر أحدهما بعيني الآخر، عندما تضغط يد على يد في مصافحة...

وبقي باسيستوف يُجِلُّ رودين، ويلتقط كل كلمة منه. وكان رودين قلّما يعيره التفاتاً. ذات مرة قضى معه صباحاً بكامله، وتحدث معه عن أهم القضايا والمهمات العالمية، وأثار فيه بالغ الإعجاب، ولكنه نبذه في آخر الأمر... والظاهر أنه بالأقوال فقط كان يبحث عن الأشخاص النزيهين الأوفياء. أما ليجنيف الذي أخذ يتردد على داريا ميخايلوفنا، فلم يدخل رودين حتى في نقاش معه، وكان يبدو وكأنما يتحاشاه. وليجنيف أيضاً كان يعامله ببرود، وعلى أية حال، لم يكن يبدي رأيه النهائي فيه، مما أربك الكسندرا بافلوفنا كثيراً، فقد كانت تجل رودين، وتثق بليجنيف أيضاً. وكان الجميع في بيت داريا ميخايلوفنا يستجيبون لنزوات رودين، وينفذون حتى أصغر رغباته. وكان نظام الاهتمامات اليومية يتوقف عليه. ومامن partie de plaisir تجري بدونه. وعلى العموم لم يكن كثير الشغف بأية سفرة مفاجئة ولهو، فكان يشترك فيها مثلما يشترك الراشدون في ألعاب الأطفال، بلفتة رقيقة ضجرة. وإلا إنه كان يتدخل في كل شيء:

يتكلم مع داريا ميخايلوفنا عن الإجراءات بشأن الضيعة، عن تربية الأطفال، عن الشؤون الاقتصادية، وعن الأعمال عموماً. وكان يستمع إلى فرضياتها، ولا يستثقل حتى الصغائر، ويقترح إعادة التنظيم واستخداماً جديداً. وكانت داريا ميخايلوفنا تبدي إعجابها ولكن بالكلام فقط. فقد كانت تراعي في الشؤون الاقتصادية نصائح مدير أعمالها، وهو رجل أوكراني كهل ذو عين واحدة، طيب القلب، ومحتال ماكر. كان يقول: «القديم بدين، والحديث نحيل» وهو يرسل ضحكة تهكم مقتضبة، ويرمش بعينه الوحيدة.

وكانت ناتاليا تأتي في الترتيب الثاني بعد داريا ميخايلوفنا في طول الوقت الذي يصرفه رودين في التحدث معها، وكثرة المرات أيضاً. كان يقدم لها الكتب سراً، ويسر لها بمشاريعه، ويقرأ لها الصفحات الأولى من مقالات ومؤلفات كان

ينوي أ ن يكتبها. وغالباً ما تتعسر على ناتاليا فكرة هذه المقالات والمؤلفات. وعلى أية حال لم يكن رودين يهتم كثيراً في أن تفهمها، بل أن تصغي له فقط. ولم يكن تقربه من ناتاليا ليروق داريا ميخايلوفنا تماماً.

فكانت تقول لنفسها: «طيب، لتثرثر معه في القرية. فهي تسلية كفتاة، وليس من ضرر كبير، وعلى أية حال فهي تزداد ذكاء... وفي بطرسبورغ سأغير كل ذلك...»

وكانت داريا ميخايلوفنا على خطأ، فلم تكن ناتاليا تتحدث مع رودين كفتاة، بل كانت تترشّف أقواله بظمأ، وتسعى إلى أن تنفذ إلى معانيها، وتعرض على حكمه أفكارها، وشكوكها، فقد كان مرشدها، قائدها. والآن، رأسها وحده هو الذي كان يغلي.... ولكن الرأس الفتي لا يظل وقتاً طويلاً يغلي وحده. وأية لحظات حلوة تذوقتها ناتاليا حين كان رودين يقرأ لها على المسطبة في الحديقة تحت ظل شجرة الدردار الخفيف المرقّط «فاوست» لغوته، وهوفمان، أو «رسائل» بيتينا، أو نوفاليس[١٨]، متوقفاً دائماً، وشارحاً ماكان غامضاً عليها! كانت تتكلم الألمانية بشكل رديء، مثل جميع آنساتنا تقريباً، ولكنها كانت تفهمها جيداً، وكان رودين منغمراً بكليته في الشعر الألماني، والعالم الرومانسي والفلسفي الألماني، فكان يجذبها وراءه إلى تلك الأقطار المحرَّمة. فتتكشف أمام بصرها اليقظ مبهمة رائعة. وكانت الصور العجيبة، والأفكار الجديدة الوضاءة تنهمر من صفحات الكتاب الذي كان رودين يمسكه بيده لتنسكب دفقات رقراقة في روحها، في قلبها المهزوز بالفرح النبيل للأحاسيس العظيمة، وتنقدح شرارة الغبطة المقدسة، وتضطرم...

ذات مرة بادرته قائلة، وهي جالسة عند النافذة، وراء طرة التطريز:

ـ خبرني، دميتري نيقولايتش، هل ستسافر في الشتاء إلى بطرسبورغ؟

كان رودين يتصفح كتابه، فأنزله إلى ركبتيه، وأجاب: ـ لا أدري. إذا دبَّرت نقوداً، فسأسافر.

كان يتكلم بفتور، فقد كان يشعر بالتعب، ولا يمارس شيئاً منذ الصباح.

ـ يبدو لي، كيف لا تستطيع أن تدبر النقود؟

هزَّ رودين رأسه:

ـ هذا ما يبدو لك!

ونحّى بصره بدلالة.

همَّت ناتاليا أن تقول شيئاً، وأحجمت.

ـ انظري ـ قال وأشار لها بيده إلى النافذة ـ أنت ترين شجرة التفاح تلك. إنها تهدلت من ثقل ثمارها وكثرتها. شعار العبقرية الأكيد...

قالت ناتاليا:

ـ تهدَّلت لأنه لم يكن لها سَنَد.

ـ أنا أفهمك، ناتاليا الكسيفنا، ولكن ليس من السهل على الإنسان أن يجده، يجد هذا السَنَد.

ـ يبدو لي تعاطف الآخرين... وعلى كل حال، الوحدة... تلعثمت ناتاليا قليلاً، واحمرت. ثم سارعت تضيف:

ـ وماذا ستفعل في القرية شتاء؟

ـ ماذا سأفعل؟ أنهي مقالتي الكبيرة، أنت تعرفينها، عن المأساوي في الحياة وفي الفن. حدثتك أول أمس عن خطتها، وسأرسلها لك.

ـ وستنشرها؟

ـ لا..

ـ كيف لا؟ فلمَنْ تكدح إذاً؟

ـ لك، على الأقل.

غضَّت ناتاليا بصرها.

ـ هذا ليس في حدود طاقتي، دميتري نيقولايتش!

كان باسيستوف جالساً على مبعدة، فسأل بتواضع:

ـ هل تسمح أن أسأل: عم هذه المقالة؟

كرر رودين:

ـ عن المأساوي في الحياة والفن. سيقرأها السيد باسيستوف أيضاً. على العموم، لم أهيمن بعد على الفكرة الأساسية. أنا لحد الآن لم أوضح لنفسي بشكل كاف المعنى المأساوي للحب.

كان رودين يتحدث عن الحب بشغف وفي أحيان كثيرة. في بادئ الأمر كانت m-lle Boncourt، عند ذكر كلمة الحب، تجفل، وتشرع أذنيها، مثل فرس فوج سمعت صوت البوق، ثم تعودت، فكانت أحياناً تكتفي بزم شفتيها، وتشم التبغ بين الفينة والفينة.

قالت ناتاليا بتهيب:

- يبدو لي أن المعنى المأساوي للحب هو الحب الفاشل.

رد رودين:

- لا، على الإطلاق! هو بالأحرى الجانب الكوميدي للحب... يجب طرح هذه المسألة بشكل مختلف تماماً... يجب استيعابها على نحو أعمق... - وتابع يقول - الحب! كل السر كامن في الحب: كيف يحصل، كيف يتطور، وكيف يتلاشى. مرة يظهر فجأة حقيقياً بهيجاً كالنهار، ومرة يتأرث وقتاً طويلاً كالجمر تحت الرماد، ويطلع لهباً في النفس، حين يكون كل شيء قد تحطم، ومرة يتسلل إلى القلب كالأفعى، ومرة ينسل منه فجأة ويغيب... نعم، نعم، هذه مسألة مهمة. ثم مَنْ يحب في زماننا؟ مَنْ يجرؤ على الحب؟

واستغرق رودين في التفكير. وسأل فجأة:

- لماذا لا يأتي سيرغي بافليتش منذ زمان؟

- توهجت ناتاليا، وانكبت على طرة التطريز، وهمست.

- لا أدري.

- يالله من إنسان رائع ونبيل! - قال رودين ذلك وهو ينهض - إنه واحد من أفضل نماذج الأشراف الروس الأصيلين...

نظرت m-lle Boncourt إليه من خلال عينيها الفرنسيتين الصغيرتين.

وراح رودين يذرع الحجرة.

قال وهو يستدير على كعبيه بحدة:

- هل لاحظت أن الأوراق القديمة على شجرة البلوط - وشجرة البلوط قوية - لا تسقط إلا حين تبدأ الأوراق الجديدة بالظهور؟

قالت ناتاليا ببطء:

- نعم، لاحظت.

- وهذا بالضبط ما يحصل أيضاً للحب القديم في قلب قوي. إنه قد انطفأ، ولكن يظل في مكانه صامداً، ولا يقدر على إزاحته إلا حب آخر جديد.

لم ترد ناتاليا بشيء.

وفكرت مع نفسها: «ما يعني هذا؟»..

وقف رودين قليلاً، ودفع شعر رأسه، وانصرف.

وذهبت ناتاليا إلى غرفتها. وظلت جالسة على سريرها وقتاً طويلاً في حيرة من أمرها، وأطالت التفكير في كلمات رودين الأخيرة. وفجأة عصرت يديها، وانفجرت تبكي بمرارة. ولكن الله يعلم عم كانت تبكي! وهي نفسها لم تكن تعرف لم فاضت دموعها فجأة، مسحتها، ولكنها كانت تسيل من جديد، مثل الماء من ينبوع طافح.

في ذلك اليوم ذاته كان الحديث عن رودين يجري كذلك بين الكسندرا بافلوفنا وليجنيف. في البداية كان ليجنيف طوال الوقت يعتصم بالصمت، إلا أن الكسندرا بافلوفنا عزمت أن تستوضح رأيه. قالت له:

ـ أرى أن دميتري نيقولايتش ما يزال لا يعجبك. أنا حتى الآن تقصدت أن لا أسألك، ولكنك الآن لحقت أن تتيقن فيما إذا كان قد حدث تغير فيه، وأنا أود أن أعرف لماذا لا يعجبك.

رد ليجنيف بفتوره المعهود:

ـ تفضلي، إذا كان صبرك قد نفد بهذا الشكل، فقط إياك أن تغضبي...

ـ طيب، ابدأ، ابدأ.

ـ واتركيني أتم كلامي إلى النهاية.

ـ تفضل، تفضل، ابدأ.

ـ إذاً ـ شرع ليجنيف يقول، وهو يهبط على الأريكة ببطء.

ـ أخبرك أن رودين لا يعجبني بالفعل، إنه رجل ذكي...

ـ لم يبق إلا أن تنكر هذا أيضاً!

ـ إنه رجل ذكي بشكل مدهش، على الرغم من أنه في حقيقة الأمر فارغ...

ـ من السهل قول ذلك!

كرر ليجنيف:

ـ على الرغم من أنه في حقيقة الأمر فارغ، ولكن ليس ذلك طامة كبرى. فنحن جميعاً فارغون، بل ولا أتهمه بأنه مستبد في قرارة نفسه، كسول، وغير واسع الاطلاع...

ضربت الكسندرا بافلوفنا كفاً بكف، وهتفت:

ـ غير واسع الاطلاع! رودين!

ـ غير واسع الاطلاع ـ كرر ليجنيف بالصوت نفسه ـ ويحب العيش على حساب الآخرين، ويُمثل غير ذلك... وكل ذلك طبيعي، ولكن السيئ أنه بارد كالثلج.

قاطعته الكسندرا بافلوفنا :

ـ هو، تلك النفس الملتهبة، بارد!

ـ نعم، بارد كالثلج وهو يعرف ذلك ويتظاهر بأنه ملتهب ـ ومضى ليجنيف يقول متحمساً شيئاً فشيئاً ـ والسيئ أنه يلعب لعبة خطيرة، وخطيرة ليست عليه، بالطبع، فهو لا يضع في اللعبة كوبيكاً واحداً، ولا شعرة واحدة. بينما الآخرون يضعون أرواحهم...

قالت الكسندرا بافلوفنا :

ـ عمن، عم تتحدث؟ أنا لا أفهمك.

ـ السيئ أنه غير نزيه. إنه ذكي ويجب أن يعرف قيمة كلماته، بينما يطلقها، وكأنها تكلفه شيئاً ما... لا جدال في أنه بليغ، سوى أن بلاغته ليست روسية. نعم، وأخيراً، جميل الكلام يُعذر للشاب، ولكن من العيب في سنه هذه أن يلهو بصخب أقواله، من العيب أن يتصنع!

ـ يبدو لي، يا ميخالو ميخايليتشن أن المستمع لا يهمه هل تتصنع أم لا...

ـ اعذريني، يا الكسندرا بافلوفنا، بل يهمه. شخص يقول لي كلمة فينفذ بها إلى نفسي كلها، وشخص آخر يقول الكلمة نفسها، وحتى أجمل منها، فلا أعير له أذناً. فمن أي شيء هذا؟

قاطعته الكسندرا بافلوفنا :

ـ يعني أنت لا تعيره أذناً.

ـ قال ليجنيف:

ـ نعم، لا أعيره، على الرغم من أن لي أذنين كبيرتين، ربما. وجوهر الأمر أن كلمات رودين تظل كلمات، ولن تصير فعلاً أبداً، بينما قد تثير هذه الكلمات بالذات قلباً فتياً، وقد تهلكه.

ـ ولكن عم تتحدث، يا ميخالو ميخايليتش ؟

توقف ليجنيف

ـ أتحبين أن تعرفي عمن أتحدث؟ عن ناتاليا الكسييفنا.

ولبرهة اضطربت الكسندرا بافلوفنا ، إلا أنها أرسلت في الحال ضحكة هازئة مقتضبة. وقالت:

ـ رحماك، إن لك أفكاراً غريبة دائماً، ما تزال ناتاليا طفلة، ثم ، أخيراً، لو كان هناك شيء، فهل من المعقول أن تتصور أن داريا ميخايلوفنا...

ـ داريا ميخايلوفنا ، أولاً، أنانية، وتعيش لنفسها، وثانياً إنها واثقة بقدرتها على تربية الأطفال إلى حد أن القلق عليهم لا يخطر ببالها. المعاذ! كيف يمكن هذا! إيماءة واحدة، نظرة مهيبة واحدة، ويسير كل شيء على ما يرام. هكذا تفكر تلك السيدة التي تعتبر نفسها راعية أدب وفن، وثاقبة الذهن، وما إلى ذلك من الصفات الأخرى التي لا يعرفها إلا الله، بينما هي، في واقع الأمر، ليست إلا عجوزاً من الذوات. أما ناتاليا فليست طفلة، وثقي بأنها تدرك أكثر وأعمق مني ومنك. ومن المؤسف أن تعثر هذه النفس النقية العاطفية الحامية على مثل هذا الممثل، على هذا الغَنج! ولكن، هذه من طبيعة الأشياء أيضاً.

ـ غنج! إنه هو الذي تسميه بالغنج؟

ـ بالطبع، هو... طيب، خبريني أنت أي دور يلعبه في بيت داريا ميخايلوفنا؟ أن يكون صنماً في البيت، ناطقاً بحكمة الدهور، يتدخل في الأمر والنهي، في القيل والقال في العائلة، في صغائر الأمور. وهل يليق ذلك بالرجل؟

نظرت الكسندرا بافلوفنا في وجه ليجنيف بانذهال، وقالت:

ـ أنا لا أعرفك، يا ميخالو ميخايليتش . احمررت، وانفعلت. لابدَّ أن شيئاً آخر يختفي وراء ذلك...

ـ نعم، هكذا دائماً أنت تقول شيئاً فعلياً للمرأة، تقوله بموجب قناعتك. ولكنها لن تهدأ حتى لا تخترع سبباً خارجياً صغيراً يجعلك تتحدث بهذا الشكل، وليس بشكل آخر.

انتاب الكسندرا بافلوفنا الغضب.

ـ مرحى، مسيو ليجنيف ! هاقد أخذت تتعقب النساء لا أسوأ من السيد بيغاسوف، ولكن لك أن تقول ما تشاء، إلا أنه مهما تكن ثاقب الذكاء فمن الصعب أن تقنعني، بأنك خلال هذه الفترة القصيرة من الوقت استطعت أن تفهم الجميع وكل شيء. يبدو لي أنك على خطأ. فأنت ترى رودين طرطوف من نوع ما[١٩].

ـ بل ولا يصل إلى طرطوف. فإن طرطوف، على الأقل، كان يعرف ماكان يبتغي، بينما هذا، على الرغم من كل عقله...

ـ ماذا، ماذا هو؟ أكمل كلامك، أنت غير منصف، رجل مقزز!

نهض ليجنيف، وشرع يقول:

ـ اسمعي ، يا الكسندرا بافلوفنا! أنت غير منصفة، ولست أنا. أنت تتضايقين

مني على انتقاداتي الحادة لرودين. ولي الحق في أن أتحدث عنه بحدة! ولعلي لم أشتر هذا الحق بثمن بخس.

أنا أعرفه جيداً، وقد عايشته وقتاً طويلاً. أنت تذكرين أنني وعدتك بأن أحدثك يوماً ما عن حياتنا في موسكو. والظاهر سيتعيَّن عليَّ أن أفعل ذلك الآن. ولكن هل سيتَّيسر لك الصبر لتصغي إليَّ؟

ـ تحدث، تحدث!

ـ طيب، تفضلي.

وشرع ليجنيف يذرع الغرفة بخطى بطيئة، متوقفاً من حين لآخر، دافعاً رأسه إلى الأسفل. وأنشأ يتحدث.

ـ لعلك تعرفين أو ربما لا تعرفين أنني تيتمت في وقت مبكر، وفي السابعة عشرة لم يكن لي رأس عائلة. عشت في بيت عمتي في موسكو، وكنت أفعل ما كنت أريده. كنت صبياً فارغاً بما فيه الكفاية، ومحباً لذاتي أحب التعالي والتبحبح. وبعد دخولي الجامعة كنت أتصرف كتلميذ، وسرعان ما حصلت لي قصة لن أحدثك بها، لا تستحق الحديث عنها. كنت أ كذب، وأكذب بشكل مقرف جداً... فكشفوا عن سري، وفضحوني، وأخجلوني... فأسقط في يدي، وانفجرت باكياً كالطفل. وقد حدث ذلك في شقة أحد معارفي، وبحضور الكثيرين من رفاقي. وأخذ الجميع يضحكون مني، الجميع باستثناء طالب، كان ـ ولاحظي ذلك ـ أكثرهم حنقاً عليَّ حتى كففت عن عنادي، واعترفت بكذبي. ربما أسف عليَّ، فتأبط ذراعي، وقادني إلى غرفته.

سألت الكسندرا بافلوفنا :

ـ أكان هذا رودين ؟

ـ لا، لم يكن رودين ... كان إنساناً... وهو الآن قد مات... كان إنساناً غير اعتيادي يدعى بوكورسكي. وليس في قدرتي أن أصفه بكلمات قليلة. وإذا بدأت الحديث عنه، فلا أحب التحدث عن شخص آخر. كان نفساً سامية نقية، لم ألتق بعده بمثل رجاحة عقله. كان بوكورسكي يسكن حجرة صغيرة واطئة في عُلية بيت خشبي قديم. كان فقيراً جداً، يقيم أوده، على نحو ما، بإعطاء الدروس. وكان أحياناً لا يستطيع أن يضيِّف زائره على قدح شاي. وأريكته الوحيدة قد تقوضت، حتى صارت تشبه القارب. ولكن على الرغم من كل رثاثة حجرته كان يأتي إليه أناس كثيرون. كان الجميع يحبونه، كان يجذب إليه الأفئدة. أنت لا تصدقينني حين أقول كم كان الجلوس في حجرته البائسة لذيذاً ومبهجاً! وعنده تعرفت برودين. وكان آنذاك قد قطع صداقته مع أميره.

سألت الكسندرا بافلوفنا :

ـ ماذا كان يميِّز بوكورسكي هذا ؟

ـ ماذا أقول لك؟ الشعر والحقيقة هما ما كانا يجذبان الجميع إليه. وهو بالإضافة إلى عقله الواضح الواسع كان حبيباً إلى القلب، بمسلياً كالطفل. وما تزال ترن في أذني ضحكته الوضاءة وهو في الوقت ذاته:

كان يتوهج مثل سراج منتصف الليل

أمام قداس الخير...

على حد تعبير شاعر نصف مجنون ورقيق للغاية في حلقتنا[٢٠] وسألت الكسندرا بافلوفنا من جديد:

ـ وكيف كان يتكلم؟

ـ كان يتكلم بشكل جيد، حين يكون رائق المزاج، ولكن ليس بشكل مذهل، وروديـن حتى في ذلك الحين كان أفصح منه بعشرين مرة.

توقف ليجنيف ، وصالب ذراعيه:

ـ لم يكن بوكورسكي وروديـن يشبه أحدهما الآخر. كان رودين يفوقه كثيراً باللمعان والضجيج، وأكثر منه عبارات، وأكثر حماسة، على ما أظن. كان يبدو أكثر موهبة من بوكورسكي إلى حد كبير، ولكنه في واقع الحال كان بائساً بالمقارنة به. كان رودين يطوِّر أية فكرة بشكل رائع، ويجادل بمهارة، ولكن أفكاره لم تتولد في رأسه، بل كان يأخذها من الاخرين، ولاسيما بوكورسكي كان بوكورسكي في مظهره هادئاً وناعماً، بل وضعيفاً، وكان يحب النساء إلى حد الجنون، ويحب مجالس الشرب، ولا يسمح لأحد بإهانته. وكان رودين يبدو مفعماً بالتوقد والجرأة والحياة، بينما في روحه بارد، ومتخوف تقريباً، إلى أن تجرح عزة نفسه، فيتلظى غيظاً. وكان يسعى، بكل وسيلة، إلى أن يخضع الناس له، يخضعهم باسم الأسس والأفكار العامة، وبالفعل كان يملك نفوذاً قوياً على الكثيرين. حقاً، لم يكن أحد يحبه، وربما أنا وحدي كنت متعلقاً به. كانوا يحملون نيره... بينما كان الجميع يستسلمون لبوكورسكي من تلقاء أنفسهم. وإلى جانب ذلك كان رودين لا يرفض الكلام قط، ويجادل عند اللقاء الأول...

لم يطالع الكثير جداً من الكتب، ولكن على أية حال أكثر بكثير من بوكورسكي، وأكثر منا جميعاً، وفضلاً عن ذلك كان له ذهن منهجي، وذاكرة هائلة، وهذا بالضبط يؤثر في الشباب! فالشباب بحاجة إلى استدلالات، ونتائج وإن كانت

غير صحيحة، ولكنها نتائج على أية حال! والإنسان النقي الضمير كلياً لا يصلح لذلك. حاولي أن تقولي للشباب إنك لا تستطيعين أن تقدمي له الحقيقة الكاملة، لأنك لا تملكينها... سيكف الشباب عن سماعك. كما أنك لا تستطيعين خداعه أيضاً. يجب أن تكوني نفسك واثقة نصف وثوق على الأقل، بأنك تملكين الحقيقة... ونتيجة لذلك بالذات كان رودين يؤثر على شاكلتنا بتلك القوة لقد قلت لك قبل حين إنه لم يطالع كتباً كثيرة، ولكنه كان يقرأ كتباً فلسفية، وذهنه مبني على أن يستخرج في الحال مما قرأه كل ماهو عمومي، ويمسك بجذر المسألة، وفيما بعد يمدّ منه إلى جميع الجوانب خيوط الفكرة الوضاءة الصحيحة، ويكشف عن الآفاق الروحية. كانت حلقتنا تتألف آنذاك، وأقولها بإخلاص، من صبيان، ومن صبيان لم يكملوا تعليمهم. وكانت الفلسفة، والفن، والعلم، والحياة نفسها، بالنسبة لنا، مجرد كلمات، بل وربما مفاهيم مغرية رائعة، ولكنها مشتتة مفككة. ولم نكن نعي العلاقة المشتركة لهذه المفاهيم، القانون العام الشامل، لم نكن نحسه، ولو كنا نتحدث عنه بغموض، ونجاهد لأن ندركه... وعندما استمعنا إلى رودين، بدا لنا، لأول مرة، أننا أمسكنا، أخيراً، بتلك العلاقة المشتركة، حتى انزاح الستار أخيراً! ولنفرض أنه كان يتحدث بما ليس منه، فلا ضير في ذلك! ولكن نظاماً منسقاً تثبت في كل ماكنا نعرف، وتوحد جميع ما كان مبعثراً حولنا، وترتب، وبرز أمامنا كالمبنى وتنور كل شيء، وانتعشت الروح في كل مكان.... لا شيء ظل بلا معنى، وعارضاً: في كل شيء تجلت الضرورة المعقولة والجمال، وكل شيء اكتسب دلالة واضحة وخفية في الوقت نفسه، وصدحت كاللحن كل ظاهرة منفصلة من ظواهر الحياة، وأحسسنا بنوع من الرعب القدسي للإجلال، وبارتعاشة قلب حلوة، كأننا أوعية حية للحقيقة الخالدة، وأدواتها المدعوة إلى شيء عظيم... أليس كل ذلك مضحكاً لك؟

قالت الكسندرا بافلوفنا ببطء:

- لا، مطلقاً، ولماذا تظن ذلك؟ أنا لا أفهمك كل الفهم، ولكن ذلك ليس مضحكاً لي.

ومضى ليجنيف يقول:

- وبالطبع، تسنى لنا، بعد تلك الفترة، أن نعقل بعض الشيء، وكل ذلك يمكن أن يبدو لنا طفولياً... ولكنني أكرر، كنا آنذاك مدينين لرودين بالكثير. وكان بوكورسكي أرفع منه بما لا يقاس، وبدون جدال، كان بوكورسكي يبث فينا جميعاً نار القوة، ولكنه أحياناً كان يفتر، ويصمت. كان رجلاً عصبياً عليلاً، ولكن حين كان ينشر

أجنحته، كان يحلق عالياً عالياً! في عمق العمق، في لازوردية السماء! بينما كان في رودين، في هذا الشاب الوسيم الممشوق، الكثير من التوافه، بل كان ينشر الأقاويل، ويغرم في التدخل في كل شيء، يعين ويوضح كل شيء. ونشاطه المحموم لم يهدأ أبداً... خلق سياسي! وأنا أتحدث عنه كما كنت أعرفه آنذاك. ومن سوء الحظ أنه لم يتغيّر. ولكنه لم يتغيّر في معتقداته أيضاً... وعمره خمس وثلاثون سنة!...

وليس كل إنسان بقادر أن يقول ذلك عن نفسه.

قالت الكسندرا بافلوفنا :

ـ اجلس، فلماذا تروح وتجيء في الغرفة، كالبندول؟

ردّ ليجنيف:

ـ ذلك أحسن لي، طيب، لأخبرك، يا الكسندرا بافلوفنا، أنني بعد انضمامي لحلقة بوكورسكي ، وُلدت من جديد تماماً. خلدت إلى السكينة، ورحت أطرح الأسئلة، وأتعلم، وأفرح، وأجلّ، وباختصار، كنت كمَنْ دخل إلى معبد. نعم، هذا ماكان حقاً، وكم أتذكر اجتماعاتنا، قسماً بالله، كم كان فيها من أشياء جيدة بل ومؤثرة. تصوري اجتماع خمسة أو ستة صبيان، على شمعة من الشحم تضيء لهم، ويقدم لهم الشاي الرخيص ومعه بقسماط كريه الطعم قديم للغاية، وليتك نظرت إلى وجوهنا جميعاً، واستمعت إلى أحاديثنا! في عيني كل واحد نشوة فرح، وفي وجنتيه توهج، وفي قلبه وجيب، ونحن نتحدث عن الله، وعن الحقيقة، وعن مستقبل الإنسانية، وعن الشعر، ونتفوه أحياناً هراء، ونعجب بالسفاسف، ولكن أي ضير في ذلك!...

وبوكورسكي جالس، وقد طوى ساقيه تحته، وأسند خده الشاحب على يده، بينما عيناه تضيئان ساطعتين. و رودين واقف في وسط الحجرة، وهو يتحدث، يتحدث حلو الكلام، تماماً كديموستينس الشاب أمام البحر الصاخب[٢١]، والشاعر المنفوش سوبوتين يصدر، من حين لآخر، آهات التعجب متقطعة، وكأنه يحلم، وشيللر ابن القس الأرثوذكسي الألماني، الطالب ابن الأربعين عاماً، الذي كنا نعتبره مفكراً متعمقاً، بسبب صمته الدائم الذي لا يعكره شيء يعتصم بصمت مهيب، وشيتوف المرح نفسه اريستوفانس اجتماعاتنا، يخلد إلى الهدوء، ولا تبدر منه غير ابتسامات قصيرة ساخرة، ومستجدان أو ثلاثة يصغون بتلذذ متهلل... والليل يسري بهدوء وسلاسة، وكأنه محمول على أجنحة. ثم يلوح الصباح رمادياً، ونتفرق، متأثرين، مبتهجين، أنقياء، صاحين (لم تكن للخمرة وجود بيننا آنذاك) وفي النفس تعب لذيذ... أتذكر أنني كنت أسير في الشوارع الخالية يغمرني الحنان، وحتى إلى

النجوم كنت أ نظر واهباً لها ثقتي، وكأنها صارت أقرب، وأيسر إلى الفهم... إيه! أي زمان مجيد كان ذاك، حتى إنني لا أريد أن أصدق بأنه ضاع جزافاً! ولكنه لم يضع جزافاً، لم يضع حتى بالنسبة لأولئك الذين شوهتهم الحياة فيما بعد...

وكم من مرة صادف وأن التقيت بهؤلاء الناس، الرفاق السابقين! ولكأن الرجل منهم صار وحشاً تماماً، ولكن ما إن يذكر اسم بوكورسكي بحضوره، حتى تتململ كل بقايا المشاعر النبيلة فيه، وكأنما رفعت السدادة عن قارورة عطر منسية في حجرة قذرة مظلمة...

سكت ليجنيف، وتوردّ وجهه الكالح.

قالت الكسندرا بافلوفنا، وهي تنظر إلى ليجنيف باندهاش:

ـ ولكن لأي شيء.. متى تخاصمت مع رودين؟

ـ لم أتخاصم معه، بل افترقت عنه، حين عرفته كلياً في الخارج. ولكن حتى في موسكو كان في إمكاني أن أتخاصم معه، إذ حتى في ذلك الحين عمل معي فعلة سيئة.

ـ ماهي؟

ـ هي كالآتي... أنا... كيف يمكن أن أعبر عن ذلك؟..

ذلك لا يتناسب مع شخصي... ولكن كنت دائماً مؤهلاً جداً للوقوع في الحب.

ـ أنت؟

ـ أنا ، وهذا شيء غريب، أليس صحيحاً؟ ولكن هذا ماكان في الواقع... طيب، كنت في ذلك الوقت مغرماً جداً بفتاة كثيرة العذوبة... ولكن، لماذا تنظرين إليَّ بهذا الشكل؟ في وسعي أن أخبرك عني بشيء أعجب من ذلك بكثير.

ـ هل تفضلت وأخبرتني ماهو هذا الشيء؟

ـ على الأقل هذا... كنت في ذلك العهد في موسكو أخرج في الليالي إلى لقاء غرامي... مع من في رأيك؟ مع شجرة زيزفونية في نهاية حديقتي. أحتضن جذعها الدقيق الممشوق، فأتصور أنني أحتضن الطبيعة كلها، فيتسع قلبي، ويرتعش، وكأن الطبيعة كلها تنصب فيه فعلاً... وبهذا الشكل كنت أنا!... وليس هذا كله! ربما تظنين أنني لم أكن أكتب شعراً؟ كتبت، بل وألّفت مسرحية درامية كاملة، مقلّداً «مانفريد»[٢٢]. وكان من بين شخصياتها شبح على صدره دم، ولكن ليس دمه، ولاحظي ذلك، بل دم الإنسانية كلها... نعم، نعم، ولا حاجة للاستغراب.... ولكن كنت قد بدأت الكلام عن حبي، كنت قد تعرفت على فتاة...

سألت الكسندرا بافلوفنا :

ـ وتوقفت عن لقائك الغرامي مع شجرة الزيزفون؟

ـ توقفت. وكانت هذه الفتاة مخلوقاً في غاية اللطف والصباحة، لها عينان مرحتان صافيتان، وصوت صداح.

فقالت الكسندرا بافلوفنا بابتسامة تهكم مقتضبة:

ـ أنت حسن الوصف.

فرد ليجنيف قائلاً:

ـ وأنت ناقدة شديدة الصرامة. طيب، كانت هذه الفتاة تعيش مع أبيها العجوز.... على أية حال، لن أسترسل في التفاصيل. وكل ما أقوله لك إن تلك الفتاة كانت في غاية اللطف حقاً. إذا طلبت نصف قدح شاي صبت لك ثلاثة أرباع قدح، بالتأكيد!... وبعد ثلاثة أيام من لقائي الأول معها كنت أضطرم حباً، وفي اليوم السابع لم أحتمل، واعترفت بكل شيء لرودين. والعاشق الشاب لابد أن يبوح بذات صدره، فاعترفت لرودين بكل شيء. وكنت، آنذاك، تحت تأثيره التام، وكان هذا التأثير، وأقولها بكل صراحة، نافعاً في أشياء كثيرة. إنه أول من لم يستنكف مني، وهذبني. كنت أحب بوكورسكي كثيراً، وأحس بشيء من الخوف إزاء نقائه الروحي، أما رودين فكنت أقرب إليه. وعندما عرف بحبي ابتهج بشكل لا يوصف، وهنأني، وعانقني، وطفق على الفور يقنعني، ويشرح كل أهمية وضعي الجديد. فأعطيت له أذناً صاغية... وأنت تعرفين كيف يجيد الكلام. أثرت كلماته فيَّ تأثيراً كبيراً. فانتابني احترام مذهل مفاجئ نحو نفسي، والتزمت مظهر الجد، ولم أعد أضحك. بل أتذكر أنني أخذت أسير باحتراس أشد، وكأن في صدري وعاء مملوءاً بسائل ثمين كنت أخاف أن يتناثر رشاشه... كنت سعيداً جداً، ولاسيما وأنا موضع ود واضح. رغب رودين بأن يتعرف على فتاتي، كما أنني كدت أصر على أن أقدمه لها.

قاطعته الكسندرا بافلوفنا قائلة:

ـ طيب، طيب، الآن وَضُح الأمر لي. انتزع رودين منك فتاتك، وأنت حتى الآن لا تستطيع أن تغفر له... أنا أراهن على أنني صائبة فيما ذهبت إليه.

ـ ستخسرين رهانك، يا الكسندرا بافلوفنا ، أنت مخطئة. لم ينتزع رودين فتاتي مني، كما لم يرد أن ينتزعها، ومع ذلك فقد حطم هنائي، وعلى الرغم من أنني، بعد التفكير بهدوء أعصاب مستعد الآن إلى أن أقول له شكراً على ذلك. ولكنني آنذاك كدت أفقد أعصابي. لم يرد رودين قط أن يؤذيني، بل على العكس! ولكن بنتيجة عادته اللعينة في تدبيس كل حركة للحياة، حياته وحياة الآخرين،

بكلمة مثلما تدبّس فراشة بدبوس، أخذ يشرح لكلينا مَنْ نحن، وماهي علاقاتنا، وكيف يجب أن نتصرف، وكان يجبرنا باستبداد على أن نتمعن في عواطفنا وأفكارنا، ويمتدحنا، ويلومنا، بل وصار يراسلنا، فتصوري!... والخلاصة أضلّنا كليا! وما كان من المحقق أن أتزوج آنستي آنذاك (على قدر ما تبقى لديَّ من الإدراك السليم) ولكن ربما كنا سنقضي، على أية حال، بضعة شهور رغيدة، مثل بول وفرديني[٢٣]، لو لم تحصل ضروب من سوء التفاهم، ومختلف التوترات، وبكلمة قصيرة لو لم تحصل سفاسف انتهت بأن رودين في أحد الأيام اقتنع بأنه، كصديق، يرى من واجبه المقدس أن يوضح للأب العجوز كل شيء، وقد فعل ذلك.

هتفت الكسندرا بافلوفنا :

ـ أمعقول ذلك؟

ـ نعم، ولاحظي أنه فعل ذلك بموافقتي. وهذا الشيء الغريب! وأنا حتى الآن أتذكر أية فوضى كانت في رأسي، آنذاك.

كان كل شيء يدور تماماً ويتقلب، كما في الحجرة المظلمة، فكان الأبيض يبدو أسود، والأسود أبيض، والكذب حقيقة، والفنطازيا واجباً... إيه! حتى الآن أشعر بالخجل حين أتذكر ذلك! أما رودين فلم يكن يجزع... وأين منه الجزع! كان ينطلق وسط كل أنواع الحِيَر والملابسات، مثل السنونو فوق بركة.

ـ وهكذا افترقت عن فتاتك؟

سألت الكسندرا بافلوفنا، وقد أمالت رأسها جانباً بسذاجة ورفعت حاجبيها.

ـ افترقت... وافترقت بشكل غير لطيف، مهين، ومحرج، وعلانية، بعلانية لا حاجة لها...بكيت، وبكت هي، والشيطان يعرف ماذا حصل. عقدة هوردي[٢٤] انعقدت لنا، وكان يجب شقها، وكان موجعاً! وعلى أية حال فكل شيء في العالم يسير نحو الأحسن. تزوجت من رجل طيب، وهي في رَغَد الآن...

قالت الكسندرا بافلوفنا:

ـ إذاً، فأنت تعرف، على أية حال، بأنك ماكان في مستطاعك أن تسامح رودين...

قاطعها ليجنيف:

ـ بالعكس! لقد بكيت كالطفل حين ودعته عند سفره إلى الخارج. إلا أنني أعترف بأن بذرة انزرعت في داخل روحي آنذاك. وحين التقيته في الخارج، فيما بعد... طيب، كنت قد كبرت... وتبدّى لي رودين على حقيقته...

ـ وماذا اكتشفت فيه، بالضبط؟

ـ كل ما حدثتك به خلال ساعة من الزمن، على العموم كفانا كلاماً عنه. ربما سيسير كل شيء بخير. لم أرد سوى أن أثبت لك أنني، حين أقاضيه بصرامة فليس ذلك لأنني لا أعرفه... أما بخصوص ناتاليا الكسييفنا، فلن أضيع كلمات زائدة، ولكن انتبهي إلى أخيك.

ـ إلى أخي! وماذا في الأمر؟

ـ ولكن انظري إليه. هل من المعقول أنك لا تلحظين شيئاً؟

غضّت الكسندرا بافلوفنا بصرها. ونطقت:

ـ أنت محق، بالضبط... أخي... منذ زمن وأنا أراه قد تغير... ولكن هل من المعقول أنك تظن...

همس ليجنيف :

ـ على مهلك! أظنه قادماً إلى هنا. ثم صدقيني بأن ناتاليا ليست طفلة، على الرغم من أنها، لسوء الحظ، بلا خبرة، كالطفل. سترين أن هذه الفتاة ستدهشنا كلنا.

ـ بأية صورة؟

ـ بالصورة التالية... أتعرفين أن مثل هؤلاء الفتيات بالذات يقدمن على إغراق أنفسهن، وتناول السم، وما إلى ذلك؟ لا تلتفتي إلى هدوئها. فإن عواطفها قوية، وهواها مشبوب!

ـ يبدو لي أ نك الآن تنحو نحو الشعر. وربما أنا أيضاً بركان لرجل بارد مثلك.

قال ليجنيف مبتسماً:

ـ لا، أبداً. ليس لك هوى إطلاقاً، والحمد لله.

ـ وما هذه الوقاحة؟

ـ هذه؟ أعظم إطراء، ولا مؤاخذة.

دخل فولينتسيف، ونظر إلى ليجنيف وإلى أخته بارتياب. وكان قد نحف في الآونة الأخيرة. شرع كلاهما يتحدث معه، ولكنه كان يرد على نكاتهما بابتسامات لا تكاد ترى، وبدا كالأرنب الحزين، على حد التعبير الذي أطلقه بيغاسوف عليه ذات مرة. وعلى أية حال ربما لم يكن في العالم بعد، إنسان لم يبد، ولو لمرة في حياته، أسوأ من ذلك. كان فولينتسيف يحس بأن ناتاليا تنأى عنه، ومعها، كانت الأرض أيضاً تبدو وكأنها تجري من تحت قدميه.

الهوامش

١ ـ انعكست في شخصية لاسونسكايا بعض صفات الكسندرا اوسيبوفنا سميرنوفا (من مواليد روسيت ١٨٠٩ ـ ١٨٨٢)وحقائق حياتها . وكانت حسناء ذات صيت انضمت في شبابها إلى حاشية القيصرة ، فكانت على علاقة ودية مع جوكوفسكي ، وفيازيمسكي ، وبوشكين ، وليرمونتوف ، وغوغول وغيرهم . نظم شعراء كثيرون قصائد فيها ، وكانت سميرنوفا تؤكد في كل وسيلة ، وأحياناً تبالغ ، في تأثيرها في مستقبل معاصريها .
كان تورغينيف يعتبر سميرنوفا مزدوجة الشخصية ، ومنافقة .

٢ ـ إشارة لكتاب غوغول « مقاطع مختارة من المراسلات مع الأصدقاء » . وكان لتورغينيف رأي سلبي في هذا الكتاب واجداً فيه دفاعاً عن « الآراء الدينية والثوابت » و« تأثير أولئك الشخصيات من الأوساط العليا الذين خصص لهم جزء كبير من « المراسلات » . وفي كثير من فصول هذا الكتاب يخاطب غوغول سميرنوفا . »

٣ـ جوكوفسكي فاسيلي ـ الشاعر ومترجم الأشعار الروسي الرائع (١٧٨٣-١٨٥٢) .

٤ـ المقصود هنا الكسندر كسارلاتوفيتش ستوردزا (١٧٩١ -١٨٥٤) وهو كاتب إشهاري ورجل دولة رجعي .

٥ـ مقطوعات للبيانو من تأليف المؤلف الموسيقي وعازف البيانو النمساوي سيغزموند تالبرغ (١٨١٢ - ١٨٧١) كانت تتطلب من عازفها مهارة في التكنيك وتألقاً .

٦ـ هو معماري وابن نحات إيطالي عاش وعمل في روسيا (١٧٠٠ ـ ١٧٧١) . وقد بنى الكثير من القصور والمباني في بطرسبورغ وضواحيها . وكانت تصاميمه في مدن الأقاليم ينفذها معماريون من تلك الأقاليم .

٧ـ اورفيوس ـ شاعر أسطوري من اليونان القديمة زعمت الأسطورة أن أشعاره كانت لها قوة تأثير سحرية لا في الناس فقط ، بل وفي الحيوانات أيضاً ، وحتى على الأشجار والأحجار .

٨ – تحوير للأبيات الأولى من قصيدة دير جافين (١٧٤٣ -١٨١٦) « في مولد القيصرة غريسلافا » « عش ودع الآخرين يعيشون . فقط على ألاّ يكون على حساب آخر »

٩ ـ بيت الشعر الذي ورد في « المحنة من العقل » مسرحية غريبويدوف « وأنت ، يا أبتي ، لا شفاء لك ، مهما فعلنا بك »

١٠ ـ الكسيس توكفيل ـ كاتب اجتماعي فرنسي ١٨٠٥ – ١٨٥٩,

١١ – هي أغنية شوبرت « قيصر الغابة » المبنية على أنشودة غوته (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢) ـ الشاعر الألماني العظيم ، في أواسط الثلاثينيات من القرن التاسع عشر كانت تحظى بذيوع معزوفة على البيانو . وكان الولع بموسيقى شوبرت صفة من صفات الرومانسيين الروس والحلقات الفلسفية في ذلك العقد .

١٢ـ جورج كانينغ (١٧٧٠- ١٨٢٧) رجل دولة إنكليزي كان في سنواته الأخيرة وزير الخارجية .

١٣- ديو جينس ـ فيلسوف إغريقي قديم (القرن الرابع قبل الميلاد) أكد بطريقة حياته الخاصة مبدأ التحرر من قرارات الدولة ، والتخلي عن الملكية الخاصة ، عاش في كوخ طيني سُمِّي برميلاً للسخرية .

١٤- الكسندر دوماس الابن(١٨٢٤ - ١٨٩٥) روائي وكاتب مسرحي فرنسي ، مؤلف رواية « غادة الكاميليا » (١٨٤٨) وغيرها ، وقد فاتت تورغينيف الدقة هنا ، فإن ذيوع روايات دوماس لا محل لها هنا ، لأن أحداث رواية « رودين » تنتهي بعام ١٨٤٨ .

١٥ - قمبيز ملك فارسي (القرن السادس قبل الميلاد) ولويس الرابع عشر ملك فرنسا(١٦٤٣ - ١٧١٥) .

١٦ - شطر من كوميديا «المحنة من العقل» لغريبويدوف ورد الكسندر بافلوفنا على استشهاد ليجنيف « أنت تغضبني » يتناسب مع السخرية الواردة في نص غريبويدوفن حيث استخدم « ونحن ننتحب »

١٧- بيتشورين هو بطل رواية ليرمونتوف « بطل زماننا » (١٨٣٩ - ١٨٤٠) وقد قلّده الكثيرون في الأدب وفي الحياة . وقد عبَّر بيتشورين عن أفكار مماثلة عن تناقضات الحب .

١٨ - كان المثقفون الروس التقدميون في العقد الثالث وبداية العقد الرابع من القرن التاسع منغمرين في « العالم الرومانسي والفلسفي الألماني » . وكان تورغينيف يحب « فاوست » غوته ويقدره تقديراً عالياً ، كان ، حسب أقوال المترجم الألماني بودينشتيدت « يحفظ كل القسم الأول منه تقريباً عن ظهر قلب » وقد ترجم تورغينيف أحد مشاهد « فاوست » إلى اللغة الروسية ، وكان تورغينيف قد تعرف على بتينا فون ارن مؤلف كتاب « مراسلات غوته مع طفل » في سنوات دراسته في جامعة برلين . وقد ترجم « باكونين » صديق تورغينيف في تلك الأعوام هذا الكتاب إلى اللغة الروسية .

١٩ - طرطوف هو بطل كوميديا موليير « طرطوف » (١٦٦٤) المرائي والمنافق الذي يكسب بالخداع ثقة أورغون ، ويقيم في بيته ، ويتمتع بسلطة غير محدودة .

٢٠ - المقصود هنا فاسيلي ايفانيتش كراسوف (١٨١٠ - ١٨٥٥) وكان أشهر شاعر في حلقة ستانكيفيتش . وتورغينيف في إيراده هذين البيتين لا يقتبس من كراسوف ، بل بالأحرى تحاكي شعره متجنباً بهذه الطريقة احتمال وقوع تطابقات مباشرة .

٢١ - ديموستينس ـ خطيب إغريقي قديم (القرن الرابع قبل الميلاد) تقول عنه الأسطورة إنه كان يشحذ فنه الخطابي وسلامة نطقه بإلقاء خطبه عند ساحل البحر محتمياً بضجيج أمواجه .

٢٢ - في هذا شيء من السيرة الذاتية . في عام ١٨٣٤ كتب تورغينيف مسرحية شعرية بعنوان « ستينو » اعترف فيما بعد بأنها « عمل سخيف تماماً ، تقلّد « مانفريد » بايرون بجهل طفولي »

٢٣ - يقصد في صداقة رقيقة بشكل خيالي وحب مثل بطلي رواية برناردن دو سانت بير « بول وفيرجيني »

٢٤ - وهي عقدة لا يمكن حلها . تقول أسطورة أن هوردي قيصر فريجيا عقد عقدة قيل إن مَنْ يحلها يصير سلطان آسيا ، وقد شقها اسكندر المقدوني بضربة من سيفه .

سلسلة «الكتاب للجميع» صدر منها

إسم الكتاب	إسم المؤلف
حي بن يقظان	لابن سينا وابن طفيل والسهروردي
غابة الحق	فرنسيس فتح الله مراش
الإسلام بين العلم والمدنية	الإمام محمد عبده
الأمير الصغير	انطوان دي سانت اكسوبري
طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
مغامرات مونشهاوزن	رودلف ارك راسب
أطفال غسان كنفاني	غسان كنفاني
كليلة ودمنة	الفيلسوف الهندي بيدبا
طوق الحمامة	ابن حزم الأندلسي
تخليص الإبريز في تخليص باريز	رفاعة رافع الطهطاوي
بطل من هذا الزمان	ميخائيل ليرمانتوف
الدين والعلم والمال	فرح أنطوان
غرائب المكتوبجي	سليم سركيس
الأجنحة المتكسرة	جبران خليل جبران
حكاية إيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
حول العالم في ثمانين يوماً	جول فيرن
رحلات جيلفر	جوناثان سويفت
مذكرات هدى شعراوي	هدى شعراوي
البخلاء للجاحظ	الجاحظ
روائع في الشعر والمسرح	رابندرانات طاغور
صندوق الدنيا	إبراهيم عبد القادر المازني
كل الأسماء	جوزيه ساراماغو
مذكرات دجاجة	الدكتور إسحاق موسى الحسيني
حياتي	أحمد أمين
قنديل أم هاشم	يحيى حقي
مذكرات الأميرة جويدان	الأميرة جويدان
إبراهيم الكاتب	إبراهيم عبد القادر المازني
بغداد مدينة السلام	طه الراوي
الحب الأول	إيفان ترجنيف

إسم الكتاب	إسم المؤلف
أرض البشر	أنطوان دي سانت اكسوبري
الملايين الأربعة	أو. هنري
في الحب والحب العذري	الدكتور صادق جلال العظم
رحلة ابن جبير	تقديم الدكتور حسين نصار
صمت البحر	فيركور
التذكار	أرسكين كولدويل
على باب سجن أبي العلاء	معروف الرصافي
قصص وحكايات خرافية	هانس كريستيان أندرسن
هرمن ودروتيه	يوهان ولفجانج فون جوته
خزين الامرئيات	فؤاد التكرلي
دون كيخوته جـ١	ثربانتس
دون كيخوته جـ٢	ثربانتس
المواقف والمخاطبات	النفري (محمد عبد الجبار بن الحسن)
أمسيات قرب قرية ديكانكا	نيوكولاي جوجول
إسرار الموسيقى	علي الشوك
الخنفسة الذهبية	إدجار الن بو
إخطية	إميل حبيبي
فن التمثيل عند العرب	محمد حسين الأعرجي
شبح كانترفيل	أوسكار وايلد
أغاني الفجر	هانزيكون فويكت
العودة إلى الأهوار	كافن يونغ
كناسة الدكان	يحيى حقي
في تجربة الكتابة	س. ر. مارتين
الإسكافية العجيبة	فيدريكو غارسيا لوركا
دراسات في التاريخ	أ. ج. هوبزبوم
عن الرجال والبنادق	غسان كنفاني
وصايا الإمام الشيخ محمد مهدي شمس الدين	تقديم غسان تويني
الفرح ليس مهنتي	محمد الماغوط
الضائع من معجم الأدباء	د. مصطفى جواد

سلسلة «الكتاب للجميع» صدر منها

إسم الكتاب	إسم المؤلف
العالم الطريف	أولدس هكسلي
طونيو كروجر	توماس مان
صوت أبي العلاء	طه حسين
أخبار الحمقى والمغفلين	أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي
بيت الدمية	هنريك إبسن
الشرق الفنان	د. زكي نجيب محمود
الوقائع الغريبة في اختفاء المتشائل	إميل حبيبي
الشقيقات الثلاث	أنطوان تشيخوف
الواسطة في معرفة أحوال مالطة	أحمد فارس الشدياق
نازك الملائكة (حياة وشعر وأفكار)	.....
رحلة باريس وقصص أخرى	فرانسيس مراش
مشروع السلام الدائم	إيمانويل كانط
مائدة أفلاطون	أفلاطون
شعر الرعاة	ترجمة صقر خفاجة
جنة على نهر العاصي	موريس بارس
لاعب الشطرنج	ستيفان زفايج
عنبر رقم ٦	أنطوان تشيخوف
أحلام شهرزاد	طه حسين
حبر على ورق	مارون عبود
والدة	فرانسوا مورياك
ماجلان قاهر البحار	ستيفان زفايج
أرض البرتقال الحزين	غسان كنفاني
حديث الأشجار	فؤاد التكرلي
مدرسة الزوجات	أندريه جيد
د. هيغل ومستر هايد	روبرت لويس ستفنسن
عاصفة الأوراق	غابرييل غارسيا ماركيز
المعذبون في الأرض	طه حسين
أمين الريحاني	مارون عبود
الجواب المسحور	غائب طعمة فرمان

إسم الكتاب	إسم المؤلف
الراهب الشائر	سافونا رولا
رحلة إلى بابل القديمة	د. إيڤلين كلينيكل ـ برائدت
مخائيل نعيمة	مسرحية ليعقوب الشدرواي
الأدب الفارسي القديم	باول هورن
الأنساب المختارة (ج ـ ١)	جيته
الأنساب المختارة (ج ـ ٢)	جيته
القاهرة	ديزموند ستيوارت
زينب	محمد حسين هيكل
كنز البسطاء	موريس ماترلنك
خمسون فيلماً من كلاسيكيات السينما المصرية (ج ـ ١)	علي أبو شادي
خمسون فيلماً من كلاسيكيات السينما المصرية (ج ـ ٢)	علي أبو شادي
خمسون فيلماً من كلاسيكيات السينما المصرية (ج ـ ٣)	علي أبو شادي
مذكرات نجيب الريحاني	بقلم نجيب الريحاني

الكتاب للجميع

هكذا نريده؛ إيماناً بكونه قيمة تحتفظ بحجمها وفاعليتها مدى العصور.

وإذ شرعنا فعلاً بإنتاج هذه السلسلة من الكتب القيمة التي نشرت خلال العقود الماضية وتعذر وصولها إلى قارئ اليوم، فإنما نهدف إلى إشاعة المعرفة وتيسير وسائلها وتمكين القارئ من الوصول إلى الينابيع الفكرية ذات التأثير في حركة الثقافة وتاريخ الفكر، بأيسر السبل وأقل التكاليف.

ونأمل أن تكون سلسلة (الكتاب للجميع) إنجازاً فعلياً ووسيلة ميسرة تتيح للقارئ تكوين مكتبة ذات مساحة منفتحة على مختلف فروع المعرفة بكلفة لا تثقل عليه.

كل الأطراف المشاركة في
هذا المشروع العربي متنازلة
عن حقوقها لصالح القارئ

ISBN:2-84305-835-X
9 782843 058356

الكتاب للجميع

سلسلة كتب شهرية توزع مجاناً مع الصحف التالية

السفير	لبنان
المدى	العراق
الإتحاد	العراق
البيان	الإمارات
القاهرة	مصر
القبس	الكويت